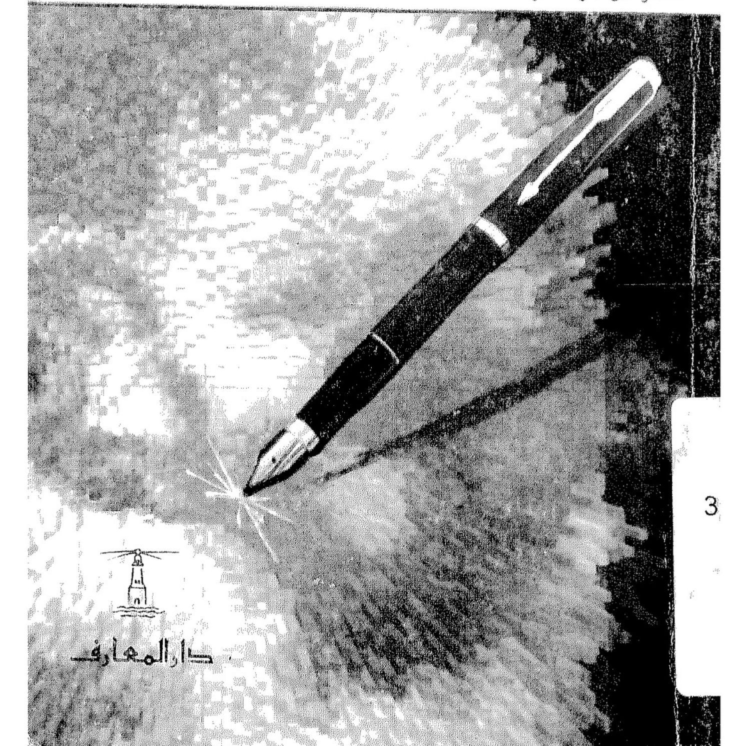
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

شوقي جلال

ثقافتنا والإبداع





سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٢٧]

رئيس التحرير: رجب البنا

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

تصميم الغلاف : منال بدران

شوقي جلال

ثقافتنا والإبداع



إهـــداء

إلى ابنى خالد ..

.. وإلى كل الأبناء

من يرون الحياة تجديدًا وابتكارًا

ويأبونها تقليدًا وتكرارًا

إلى صنَّاع الحياة .. جديدة دائمًا

شوقى جلال

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

ثقافتنا وروح العصر

« اعرف حكمة القدماء وعايش العصر بذا تغدو معلمًا »

كونفوشيوس

الحضارة / الثقافة وحوار الإنسان مع الطبيعة :

قضية الإنسان الوجودية الأولى والأساسية هى البقاء فيزيقيًا واجتماعيًا ؛ وهى على المستوى الاجتماعى الوعى بتحديات البقاء ، والاستجابة لها . ومن هنا كان تطور الإنسان المجتمع تطورًا ثنائى الأبعاد : تطور بيولوجى وتطور القدرات على التفكير المنطقى والإبداعى الخلاق . واستجابة الكائن الحى – الإنسان المجتمع – لمسيرة التطور البيولوجى الاجتماعى خلقت منه ما يمكن أن نصفه بأنه حزمة معلومات على المستويين الوراثى البيولوجى والاجتماعى . أعنى أن الإنسان يمكن تشبيهه على نحو غير مجازى بأنه حزمة معلومات ...فردًا ماديًا عضويًا وكيانًا اجتماعيًا فى وحدة وتكامل وتطور مطرد .

وكما يقول رينوب ويلم فان بميلين عالم الجيولوجيا المتوفى عام ١٩٨٣ إن الإنسان يحصل على الإشباع الذاتى من خلال نشاطه

الإبداعى وسعيه للتجديد والاختراع فى خضم مواجهاته المستمرة لتحديات الحياة[1] . واستجابة الإنسان بهذه الطريقة البناءة تتحدد بعاملين رئيسيين على مدى تاريخ وجوده التطورى الارتقائى : الأول قانون الوراثة بالنسبة للأفراد — والثانى البنية الثقافية على مستوى الإنسان / المجتمع . والعاملان كلاهما فى تفاعل تخصيبى متبادل : البنية الثقافية والتكوين الوراثى Phenotype . ويتمثل نتاج هذا التفاعل فى عمليات التكيف الإنسانى .

وقيام الحضارات وتطورها تعبير عن هذه القدرة الإبداعية على التكيف . فالحضارة فى تعريف إجرائى هى إبداع الأدوات المادية والإطار الفكرى / القيمى استجابة لتحديات وجودية يفرضها الواقع المتجدد بتفاعله مع الإنسان / المجتمع على نحو يفضى إلى رؤية جديدة للعالم على المستويين الوجودى والمعرفى . وهنا الحضارة والثقافة معًا وجهان لعملية واحدة تطورية تستهدف التكيف فى إطار الاستجابة لتحديات البقاء . وهنا أيضًا ، وحسب هذا التعريف ، ينبغى الفصل بين الذات والخارج بحيث يغدو الإنسان فكرًا وقيمًا وسلوكًا تعبيرًا عن الحضارة — الثقافة التى يعيشها .

---

(١) مجلة العلم والمجتمع — اليونسكو ع ٥٦ ، ٥٧ السنة ١٤ — ديسمبر ١٩٨٤ / فبراير ١٩٨٥ مقال رينوب ويلم فان بميلين « الجذور الوراثية والروح الإبداعية » .

ومرة أخرى يمضى هذا التطور متفاعلاً ومؤثرًا فى التطور البيولوجى للإنسان المجتمع .

الإنسان فى حوار مع الطبيعة . وهو الكائن الوحيد فى ظننا ، الذى يحاول أن يفهم ويعرف ما حوله ومن هو ، ويحاور الطبيعة مستعينًا بخبراته وتجاربه التى ترسبت مع الزمن فى الذاكرة الجمعية ، أى مستعينًا بالتراث الثقافى علاوة على فعله النشط . ذلك لأن الطبيعة لا تحاوره أو لا تكشف عن نفسها فى ثوب واحد على نحو نمطى وإنما متغيرة أبدًا وجوديا ومن حيث صورتها فى الوعى مع التغير الحضارى الثقافى . ومن ثم فإن ذاكرة الإنسان المجتمع ليست مجرد خزانة اكتملت مرة وإلى الأبد ؛ بل هى دعامة مفتوحة أعنى قابلة دائمًا وأبدًا للإضافة والتجديد فى اتساق مع تغير الطبيعة وفعالية الحياة . واستعادة الإنسان / المجتمع لمخزون الذاكرة الجمعية ، أى للتراث الثقافى ، هى نوع من الاستنتاج الإبداعى مشروط بالوعى والفهم لأحداث الطبيعة أو لغتها المتجددة فى الحوار معه .

وتهيأت للإنسان / المجتمع بفضل التطور البيوثقافى إمكانات بيولوجية واجتماعية تدعم حواره أو تسانده فى معركة البقاء والصراع . وتمثلت هذه الإمكانات فى تزايد تعقد بنائه العضوى العصبى على مستوى النوع ، وتعقد وتطور بنائه الاجتماعى . ومن ثم نجد تطوره يتميز عن سواه من الكائنات بأنه تطور بعيد

عن الاستطراد العشوائى ، بل يمضى فى طفرات حضارية هى إبداع فكرى وأدائى ويكون إبداعه الفكرى هو إطاره المعرفى القيمى ، أو المظلة الثقافية المتسقة والمتكاملة أو المتوحدة مع إبداعه الأدائى . والمظلة الثقافية هى رصيد خبرته وأداة حمايته فى زمان ومكان محددين جرى خلالهما الحوار بين الإنسان المجتمع والطبيعة .

وفى هذا المعنى يقول فلمنج تحت عنوان « المجتمع والثقافة — من حيث علاقتهما بلعبة لا نهائية » : يمكن القول : إن كل حضارة جديدة هى ثقافة جديدة ناشئة . ومن ثم فإن الثقافة حركة متغيرة باستمرار . إنها ما يفعله الناس وما يعيشونه أو يعايشونه ، وهى القيم والأفكار والأحلام المشتركة[1]. والثقافة بحكم طبيعتها هذه ، وبحكم طبيعة التكوين العصبى البيولوجى والوظيفى للنوع الإنسانى تتصف بالدينامية والحراك المستمر ، وتتسم بالقدرة على الانفصال لتشكل بنية مقطوعة الصلة بالواقع توهم بالاستقلالية وبذا تتحول إلى أيدلوجية تمارس ضغوطها وتسلطها فى تحديد أنماط السلوك ، وتفرز باعتبارها أيديولوجيا سلبياتها فى عزل الإنسان — المجتمع عن الواقع .

هذا ما لم تقابلها فعالية إنتاجية نشطة داخل المجتمع ، فعالية

---

(١) من شبكة الأنترنت تحت عنوان : New civilization culture 3 june 1995.
Flemming - society and culture - in relation to Infinite game playing. New Cirilization Network

تفرز فكرًا جديدًا وتكون بمثابة تجارب إثبات الزيف والصواب تأسيسًا على تحديات واقعية .

وحيث أن دينامية الثقافة رهن بفعالية الإنسان المجتمع فهذا يعنى أنها مرتبطة عضويًا بهذه الفعالية ... . ولكنها ليست هى ذات النشاط ، بل هى نتاجه وإفرازه . وتتحول فى الوقت نفسه إلى شرط وجودى حاكم للفعالية فى الحال وفى المستقبل مع تهيؤها ، فى حالة توفر شروطها الصحية ، للإضافة والتعديل ، بل ومواكبة الطفرة الحضارية الثقافية .

وتبرز هنا خاصية أخرى للثقافة ،أو للتراث الثقافى ، أنه بنية تاريخية حية فاعلة أبدًا ، متغيرة دومًا إما إلى ثراء وارتقاء بفضل الفعالية الإنتاجية الإبداعية للمجتمع فى استجابته لتحديات الواقع ، وإما إلى تدهور وانحلال تأسيسًا على ركود الحراك الاجتماعى وتعطل قدراته الإنتاجية الإبداعية .

وحيث إن حوار الإنسان المجتمع مع الطبيعة المتغيرة المتباينة يجرى على مسرح الأحداث الذى تجسده الجغرافيا أو النسق الأيكولوجى بمعناه الأشمل والذى يعطى لكل حضارة / ثقافة خصوصيتها ، فلابد وأن يتعدد التراث الثقافى فى المكان وفى الزمان مع تعدد وتباين أنماط الاستجابات ونوع تحديات البقاء

التى يفرضها هذا النسق الأيكولوجى المتغير أو التى تفرضها أيضًا فعاليات الإنسان / المجتمع بحكم كونه الآن قوة تغيير عاصفة بفضل الإمكانات التى أتاحتها له ثورة العلوم والتكنولوجيا . معنى هذا أن البشرية دائمًا إزاء ثقافات متعددة غير متجانسة ؛ وإزاء تراثات ثقافية وليس تراثًا ثقافيا واحدًا . ويفرض هذا تحديًا إضافيا هو عملية الفرز العقلانى النقدى لهذا الرصيد عند المواجهة .

والثقافة بحكم هذا النشوء التكوينى التاريخى الاجتماعى داخل النسق الأيكولوجى تكون ثقافتين ...ثقافة الموقع والوضع ، أى ثقافة محلية النشوء والتكوين والمؤثرات تعبر عن الخصوصية المحلية . وثقافة الحضارة أى الإبداع المادى والروحى متجسدة فى إطار معرفى / قيمى تجاوزت واقعًا تاريخيا سابقًا . والثقافة المحلية تكون مجلى لتناقضات المصالح المحلية والرؤى التاريخية ، كما تكون إطارًا شاملاً أنساق التصور أى مجموعات المفاهيم والرموز التى يفسر من خلالها أبناء المجتمع صورتهم عن أنفسهم وعن العالم وتحديد المباح والممنوع ... إلخ وأنساق المعايير والقيم علاوة على أنساق القيم والتصورات التى هى رهن الإبداعات الحضارية المادية التقليدية . ومن هنا فإنها تدخل فى صراع أو تناقض مع الحضارة الجديدة بشقيها المادى والمعنوى أو الثقافى . والثقافة الجديدة لا تستهدف إلغاء الخصوصية المحلية وإنما تنشد عملية إعادة تكيف اجتماعية

جديدة ، وملاءمة وجدانية وفكرية ومفاهيمية بل وممارسة عملية ، أى تتغير أنساق التصور والمعايير وأنساق التعبير والعمل . وهذا هو السبب فى أنه مع كل حضارة جديدة ، تتغير صورة العالم وجودًا ومعرفة ، وتتغير رموز تفسير ظواهره وحدودها ؛ كما تتغير القيم المحددة للسلوك والمواقف وأساليب تبريرها وحدود ممارساتها ، ونكون مع كل حضارة جديدة إزاء لغة وتعبيرات جديدة من حيث المعنى والدلالة حتى وإن احتفظت مفردات اللغة بمبناها . وطبيعى أن تتغير الوسائل التقنية التى يمارس بها المجتمع إبداعاته الحضارية الجديدة بما فى ذلك إعادة تنظيم بنية المجتمع وعلاقاته .

معنى هذا أن الحضارة / الثقافة هى نشوء تكوينى اجتماعى تاريخى رهن زمان ومكان محددين . أو لنقل بعبارة أخرى إن آفاق التصور ومعايير القيم ، وأنساق التعبير — اللغة والفكر — والعمل التقنى والعلاقات الاجتماعية هى حدث نشوئى تكوينى اجتماعى تاريخى ؛ أى حضارة — ثقافة طارئة . ومن ثم فإن البنية الحضارية الثقافية لا تقبل النقل وإنما التفاعل شرط توفر بيئة صالحة لدى الطرف الآخر من حيث تطوره النشوئى التكوينى الاجتماعى التاريخى . إن النقل يفضى إلى صراع وأزمة هوية تهدد بالانسلاخ عن التراب ثم لا شىء حضارى جديد . ولكن معاناة البناء والتحول التزامًا بمطالب اجتماعية هو النهج الصواب .

وهنا يجمع التفاعل ما بين الخصوصية والعمومية فى آن واحد . مثال ذلك خطأ شائع نردده حين نتحدث عن الديمقراطية بمعزل عن كل التطورات البنيوية الأخرى ؛ وصواب القول « مجتمع ديمقراطى » للدلالة على عملية النشوء الاجتماعى التاريخى باعتبار الديمقراطية نسق تعبير وأداة توظيف ونسق تصور وقيم خاصة بالإنسان والمجتمع والوجود والعلاقات واحتياجات المجتمع فى مرحلة تاريخية من تطوره ، وليست الديمقراطية وصفة يجوز نقلها إلى بيئة رافضة أو غير مهيأة لها بحكم تاريخها وثقافتها . ويتجلى هذا واضحًا حين نعرف أن المجتمع الديمقراطى « له أنساق تصوره الخاصة به عن مفاهيم مثل الشرعية ومرجعيتها ... . شرعية السلطة والسلطان ، شرعية المواطنة والمواطن وحقوقه الاجتماعية والسياسية وحرية الفكر والإبداع ، وشرعية الحوار والحجة والبرهان والتحالف ... إلخ وأن لا شىء معفى من السؤال والمناقشة والنقد ، بل هذا هو أساس الشرعية .

ومن ذلك أيضًا مقولة « التغير والتطور » من حيث هى تصور للوجود وأيضًا قيمة معرفية ، ومحدد لأسلوب العمل والتعامل ، بل وفعل إنسانى بمعنى أن دور الإنسان تغيير العالم علاوة على فهمه . إذ أن التغير والتغيير بهذا المعنى ثقافة جديدة أدت إلى

خلق بنية ذهنية جديدة . إنه اعتراف بأن الوجود واقع مادى فى حركة ، وموضوع للفهم ، ونحن ندرك قوانينه . والقول بالتغير يعنى ضمناً دعوة العقل لفهم واقع فى صيرورة دائمة ولم يعد كما كانت تقضى تصورات حضارات سابقة أن الوجود كامل مكتمل خاضع لتدبير مسبق وأن ثمة سلطاناً حاكماً للوجود والمجتمع قسرًا وفق فكرة أو عقيدة فى الذهن وأن لا حول ولا طول للإنسان أو لعقله لفهم الوجود أو تغييره ... بل إن عقل الإنسان ، تأسيسًا على مقولة التغيير ، عقل متجدد يلاحق الواقع المتغير وهو مرجعية الصدق . واقتضى مفهوم التغير الاعتراف بسيادة العقل والاعتراف بمسئوليته الجديدة عن صياغة شروط ومناهج للبحث والمعرفة .. أعنى نشأة العلم والقول بالتعددية والتسامح داخل المجتمع واستعداد الإنسان لمواجهة التحولات والتغيرات بل ومشاركته فى مسئولية التغيير .. إن مقولة التغير وليدة حضارة الحداثة هى إحدى عناصر الإبستيم أو المنظومة المعرفية الحداثية ، من حيث محتواها العلمى ومنهجها العرفانى ، إذ ترفض التصورات الثباتية السكونية تأسيسًا على أن لا جديد تحت الشمس والقول بالتدبير المسبق ، وأن المجتمعات هى هى فى الزمان والمكان وما كان ملائمًا لها بالأمس ملائم لها اليوم وغدًا . ولنقل الشيء نفسه عن تصورات ومفاهيم أخرى تغيرت دلالتها ومحتواها مع عصر الحداثة مثل مفاهيم الزمان والعصر والعلم

والمعرفة ومفاهيم التراث والحرية الفردية – والإنسان من حيث الدور والقيمة والوضعية والمكانة فى المجتمع ...إلخ إنها جميعًا تشكل حداثيا أنساقًا جديدة من التصورات والمعايير والقيم .. إنها عناصر ومكونات منظومة معرفية قيمية جديدة إزاء عالم جديد .

نخلص من هذا إلى أن الحضارة / الثقافة هى جماع إنجازات وإبداعات مادية وروحية يحققها المجتمع ، حاملة خصوصيته الزمانية المكانية ، وترتقى به إلى مرحلة أخرى إثر انتصاره على تحديات مادية ومعرفية وثقافية عاقت حركته وهددت بنيته . ذلك لأن الاستجابة الصحيحة على التحديات هى جوهر الإنجاز الحضارى . وتتجسد هذه الإنجازات فى الإنسان / المجتمع من حيث هو الهدف الأسمى والأداة فى آن . أعنى أن الإنسان ينتقل من مرحلة إلى أخرى من حيث العلاقات الاجتماعية والدور الاجتماعى والاقتصادى والعلوم واللغة والفنون والتكنولوجيا بعامة وعلاقة الإنسان بالطبيعة ، ومن ثم يتغير معها الإبستيم إلى إطار معرفى / قيمى جديد يفى بمقتضيات هذا التحول من عصر إلى عصر يميز تاريخ المجتمع فى تطوره الحضارى . والجدير بالذكر أن داخل المجتمع أى البنية الداخلية هى المعيار والدافع ، وليس مجرد صراع مع الخارج دون انعكاسات ارتقائية فى نوعية الإنسان وشروط فكره ووجوده .. وإن التطور الارتقائى الحضارى الثقافى

للمجتمع والمرتكز على تحول فى الشروط الوجودية لهذا المجتمع والمقترن بإطار معرفى / قيمى جديد يكون دائمًا رهن فعالية إنتاجية نشطة للإنسان / المجتمع . ويفضى هذا بلغة جاستون باشلار فى معرض حديثه عن الشروط الابستمولوجية للتقدم العلمى ، إلى ضرورة تدمير العوائق المعرفية التى تفرضها ثقافة قديمة ، كما تفضى إلى قطيعة ابستمولوجية أعنى إلى تجاوز ، وليس انسلاخ أو نبذ ، المعرفة السابقة . ولهذا فإن معرفة ما بعد القطيعة ، أو الإطار المعرفى / القيمى للحضارة الوليدة يختلف نوعيًا عما قبله منهجًا ومضمونًا ومحتوى أو دلالة لغة ليواكب واقعًا أو تصورًا جديدًا للواقع .

وتكون الحضارة الثقافة الجديدة تأكيدًا للهوية الاجتماعية على أساس من النفى الجدلى وليس الرفض وقطع الصلة والإسقاط المطلق . إذ ها هنا لا تكون الهويـة الاجتماعية الثقافية تاريخًا مضى وكينونة اكتملت خارج الـذات ؛ وليست هى الـذات فى استقلال بل هى الذات فى فعاليتها الاجتماعية وصيرورتها التاريخيـة . إنهـا ذات تزدهر فى إنجازات مطردة تحقق من خلالها وجودها ، وآليتهـا فى هذا دينامية جدلية مع الواقـع أو الوجـود اعتمادًا على العقل الناقد .. إنها مشروع وجودى تاريخى فيه عراقـة الماضى وطموحات المستقبل .

روح العصر :

كان سكان الغرب التقليدى ، أى أوروبا ، ينهلون من حضارة ثقافة الشرق القديم ... أخذوا عن مصر ، وبابل ، وشرق البحر المتوسط فى عصر الازدهار الحضارى قبل الميلاد ... وأخذوا عن الشرق فى عز النهضة العلمية فى البلدان الإسلامية .وساد فى الغرب قول مأثور يقول : « كلما اتجهت جنوبًا ازددت علمًا وحكمة » . ظل الحال كذلك صعودًا وهبوطًا حتى نهاية القرون الوسطى فى ظل حضارتين : رعوية وزراعية . ثم توقف التاريخ فى بلدان الشرق ، أعنى لم تعد مجتمعات الشرق تضيف جديدًا .. انهارت حضاريًا لأسباب لم تخضع بعد لدراسة سوسيولوجية تاريخية علمية من جانبنا . وكما أشرنا سابقًا ، فإن ثقافة أمة لا تبقى على حال واحد أبدًا ، فهى إمَّا إلى ازدهار قرين ازدهار الفعل والفكر المجتمعى ، وإما إلى تحلل وانهيار ، وهذا عين ما حدث .

ونهض الغرب . وبدأ حقبة حضارة / ثقافة جديدة لاتزال ممتدة : حضارة عصر التصنيع وقد اكتملت ، وبدأت حضارة عصر ما بعد التصنيع .. حضارة عصر الفضاء الإلكترونى . خطا الغرب أولى خطواته بنقد العقل العملى والنظرى ضمانًا لما رآه اليقين على أيدى فلاسفته المتعاقبين ، ومهد لهذه الخطوات كسر نير هيمنة رجال الإقطاع والكهنوت عن طريق الإصلاح الدينى

والعلمنة . والعلمانية تعنى بإيجاز شديد إعمال العقل فى شئون الدنيا . وهذه خاصية جميع الحضارات إبان ازدهارها ، أى خاصية حضارية وليست أوربية .. ومع تعقد مباحث الفكر والعلم ، وتعقد المجتمعات والتخصصات أصبح لكل مبحث فكرى وعلمى ، ولكل مجال فى إدارة شئون المجتمع أهله ورجاله وليس سدنته وفقهاؤه وكهانه ؛ وأصبح الرأى موكولاً لأهله : الدين لرجال الدين ، والعلم لرجال العلم ، كل فى تخصصه .

وبدأ الغرب عصرًا إنسانيًا وتنويريًا . والتنوير هو الوجه الآخر للعلمانية ، ولكل عصر منهجه فى العلمانية والتنوير تأسيسًا على إمكانات وقواعد الفكر والعمل المعتمدة ، وأكد عصر التنوير الحداثى اطارًا معرفيا / قيميًا جديدًا ... فى الماضى ، أى فى الحضارة الرعوية والزراعية نحن نعايش الحياة : ولكن مع بداية عصر العمل والتغيير ، عصر الصناعة ، فإن الإنسان / المجتمع يصنع الحياة ؛ والحياة عنده مشروع ؛ والنجاح رهن حرية الفكر والفرد قياسًا إلى سلبيات الماضى ومقتضيات الجديد ، ومن ثم برز مفهوم الحرية الفردية مفهومًا حضاريًا جديدًا . والتنوير هنا ليس مجرد معرفة تراكمية يجرى استكمالها ، ولا مجرد إرث أو تراث ينبغى إحياؤه على أى نحو كان بكل محتوياته وتناقضاته الداخلية ، أو تناقضه مع شروط ومتطلبات حركة المجتمع فى

عصر جديد . بل التنوير صياغة نظرية جديدة ، وصورة جديدة للعالم والإنسان - الفرد والمجتمع .

والتنوير تجربة إنسانية حية ممتدة فى الزمان لا تكتمل ، لا يوقفها أو ينكسها غير توقف الفعالية الاجتماعية الإبداعية . ومن ثم يكون التنوير صنو الفاعلية ؛ بل إنه أيضًا فاعلية نشطة نقدية إبداعية . ولا يقنع الإنسان / المجتمع هنا بمجرد المعرفة وتوسيع نطاقها ، ولا يقنع بمجرد التأمل النظرى المنفصل عن العمل المجتمعى ، أى منفصل عن المشروع الحضارى ؛ وإنما هو فى سدى ولحمة النشاط ، لذلك فإنه يعتمد التجربة والتحليل والنقد والبحث فى تاريخية الظاهرة وأسبابها وصيرورتها واحتمالاتها فى ضوء قوانينها ودور الإنسان / المجتمع فى إدارتها وصولاً إلى صياغة نظرية علمية فى إطار قواعد العصر للتفكير العلمى . ولهذا اقترن عصر التنوير بفلسفة أو فلسفات جديدة فى مجال الابستمولوجيا لإزالة المعوقات المعرفية . وأكدت هذه الفلسفات على دور الذات العارفة ، وأنها مرجع إثبات الوجود ، وأداة الفكر ، ومعرفة الظواهر ، وصياغة القيم . واقتضى هذا رسم خطوات المعرفة المعتمدة فى البحث العلمى لمعرفة الإنسان لذاته وللطبيعة . أضحى العصر الجديد ثورة معرفية .

حضارة عصر التصنيع وما بعد التصنيع هى حضارة العلم :

إبداع مادى وثقافى جديد ، وتحول ثورى فى بنية المجتمع ، وفى علاقات ووضعية ومكانة الإنسان (الغربى) . ساد إطار معرفى / قيمى جديد لبناته الأساسية العقل الناقد الحر المبدع الوثاب .. العمل هدف وقيمة ومعيار ؛ والخبرة معرفة نسقية فى ارتقاء .. والعلم بحث منهجى مجتمعى بروح الفريق .. لغة جديدة هى لغة العلم ومرجعية جديدة هى العقل ممثلا فى مناهج البحث والأنساق النظرية وشهادة التجربة .. وتجلى ذلك فى نظريات علمية وفى إبداعات فلسفية تتصف بالدينامية والتعددية والتصويب الذاتى ، وفى تطبيقات تكنولوجية وقضايا اجتماعية .

بضع قرون وانتقل العالم فيها إلى العالمية عبر الأمة القومية بفضل العلم والتكنولوجيا روح العصر الحديث . وفرضت حضارة العلم ثقافة جديدة .. إطارًا معرفيًا / قيميًا جديدًا ، أنماطًا من الفكر والمفاهيم لفضاء وجودى أو لعالم جديد .. وخبرات وجودية غير مسبوقة .

والعالم الجديد عالم الكومبيوتر والاتصالات الذى يشكل حيزًا جديدًا للوجود الإنسانى والطبيعى وتسيطر عليه لغة المعلومات ، ووسائل الإعلام والاتصال وتنفتح أمامه آفاق رحبة بغير نهاية ، عالم سرعة الضوء فى سريان الأحداث وإيقاع تقدم العلوم

وتطبيقاتها ، ورهان السبق فى صراع الوجود من أجل البقاء والهيمنة حق لمن يملك القوة ممثلة فى إنتاج وإبداع فيض المعلومات وللأقدر والأسرع فى توظيفها لخدمة أهدافه .

وحضارة عصر ما بعد التصنيع أو حضارة عصر الفضاء الإلكترونى بقدر ما هى نفى جدلى لحضارة أو حضارات سابقة عليها هى أيضًا حضارة واعدة بعطاء مميز جديد .. عقلانية جديدة تجاوزت عقلانية ويقين بل وشك وعدمية ديكارت وكانت ومونتينى ونيتشة وسارتر وغيرهم .. وانتقل العصر إلى عقلانية جديدة ناقدة للعقل الحداثى لتقدم عقلانية نسبية مركبة عقلانية التعددية والشواش Choos الذى لا يعنى الفوضى بمعناها الاجتماعى الدارج بل يعنى تعدد الاحتمالات ، التى تضع العقل المتقدم أمام حركة مفتوحة لشبكات من المفاهيم جميعها احتمالات على قدم المساواة . والحداثة شأن التنوير ، والعلمانية حدث متصل فى الزمان باتصال فعالية عقل الإنسان / المجتمع . وتنتفى عنها صفتها بتعطل هذه الفعالية . وما بعد الحداثة هى حداثة جديدة ، على مدى هذا المتصل الزمنى . ونقد العقل الحداثى ليس رفضًا لدور العقل من حيث المبدأ وإنما هو نقد لمنجزات ، ومحاولة عقلانية للتصويب تأسيسًا على صورة جديدة للعالم – للطبيعة والإنسان – والدروس المستفادة من الماضى .

وتؤكد هذه الحقبة الحضارية الجديدة الواعدة أن العقل دراما

إنسانية وجودية .. إنه ليس كيانًا مستقلاً ، وليس أعدل الملكات قسمة بين الناس دون اعتبار لشروط الوجود ، وليس قوة مكتسبة بصورة حاسمة ونهائية ، وليس حكرًا عرقيًا أو دينيًا ؛ بل هو فعالية حرة وجودية إنسانية ؛ فعالية الإنسان / المجتمع فى الوجود وبهذا الوجود فى صورة جديدة متغيرة دومًا .

والعقل أيضًا صراع وجودى ضد الرؤى أو الأطر السابقة ، أعنى ضد ما نسميه المنفى الفعَّال الذى تجاوزته الحضارة فكرًا وقيمًا وأداء ولكنه يصارع فى الخلفية بعد أن حمل صفة اللامعقول . فالعقل يحمل فى طياته أثناء وثباته تاريخه وأحقابه أى ثقافاته الماضية . لهذا نرى أن هذا الصراع قد يحتدم فى لحظات توصف بالأزمة ويفضى فى حالات الانحسار إلى رده إلى البنية العقلية السابقة . ذلك أن كل طفرة حضارية تستهل عصرها بآلام مخاض الجديد والعودة النقدية العقلانية لبيان لا معقولية القديم ، المنفى الفعَّال ، فى إطار صورة الوجود الجديدة ، التى نعقل بها الوجود ، أى أنه يؤكد ذاته عقلاً فاعلاً من خلال صراعه ومواجهة تحديات الماضى ، وتحديات الاختيارات التى تطرحها البيئة ... العالم الجديد .

إن كل حضارة لها عقلها ، أعنى لها آليتها الفاعلة فى إطار وجودى فكرى قيمى .. إنها قراءة جديدة للوجود ، وقراءة جديدة للقديم الموروث .

ويعيش الإنسان بعقله الجديد ، وفى عالمه الجديد حالة من التوتر الوجودى الحى النشط هى حافزه ، ومعلم حضوره ، ومنطلق وثوبه إلى حقبة أرقى .. وقد يكون ملائمًا أن نصف هذا التوتر بأنه تجل لحالة جدلية بين العقل والوجدان ..الوجدان الذى هو حالة شعور بالتوازن والسكون مع إطار معرفى/ قيمى تقليدى ألفه الإنسان زمانًا .

ثقافتنا وروح العصر :

السؤال الآن أين نحن ثقافيًا من روح العصر ؟ ما هو دورنا وإسهامنا إبداعًا وإنتاجًا لهذه الثقافة ؟ وما هو نهجنا للاندماج أو للاختيار أو للنقد والتحدى ؟ بل نسأل كيف تكوَّن العقل المصرى والعربى بعامة اجتماعيًا وأيكولوجيا وحضاريًا على مر العصور ؟ النشأة والتكوين والتطور والتفاعل صعودًا وهبوطًا ، ازدهارًا وتحللاً فى ضوء الظروف المحيطة ، والتفاعلات والمؤثرات الإقليمية والعالمية ، والفعالية الاجتماعية والتكيف البيئى ؟ لمن المرجعية ولمن السيادة العليا تاريخيًا لكل مكونات العقل ؟

مجتمعاتنا العربية تفتقر إلى الثقافة بالمعنى الذى أسلفناه ؛ إذ لا يملك أى من المجتمعات « النسق الشامل لنشاط إبداعى عقلانى للإنسان / المجتمع والذى يحدد صورة المجتمع والإنسان ؛

أو صورة النحن الاجتماعية ، وصورة الآخر المتعدد الذى يتفاعل معه المجتمع في حركة مستقبلية نحو هدف منشود .

ولكن ثقافتنا أو ثقافتنا العربية ليست تعددًا وليد حوار قائم على فعالية اجتماعية وعقلانية نقدية ، بل هى حالة تشظى بسبب تعطل الفعالية الاجتماعية ، وتعطل الإبداع والتجديد ؛ ثم الغربة فى الزمان وفى المكان مع تهويمات تحمل خصائص الأسطورة عن عصر أو عصور ذهبية مضت ؛ أو عن آخر يراه البعض نموذجًا جديرًا بأن يحتذى .

ومناقشتنا للثقافة وعلاقتها بروح العصر تتوقف على عناصر كثيرة منها مفهومنا للحقيقة ونهجنا فى الوصول إليها أو التعامل معها . هل الحقيقة غائبة عنا زمانًا ومكانًا ومعرفتنا لها بالواسطة ؟ وهل هى مطلقة ؟ أم أن الحقيقة فى شئون مظاهر الدنيا هى علاقتنا بالواقع الماثل أمامنا الفاعل فينا وبنا ، وقدرتنا على التأثير فى مجريات الواقع عبر تحويل علاقتنا به فكرًا وممارسة ومؤسسات مجتمعية .

إن تراثنا الثقافى المعاش أو الدارج يكشف ، فيما يختص بمفهوم الحقيقة ، عن أننا لا نزال نعيش أسرى الغنوصية أو الباطنية والهرمسية حيث الباطن استوعب الظاهر واحتواه ، فالذات الإنسانية فى هذا التراث ليست ذاتًا عارفة ، لأننا نعرف الحقيقة عن طريق الإحالة .. الإحالة إلى العقل المطلق أو إلى الآخر .... والعارف من صدقت نيته

وأوتى الوسيلة واستقرت فى روعه الحقيقة .. الحقيقة الغائبة عنا .. وهى المطلق زمانًا ومكانًا دون تمييز بين شئون الدنيا والدين ، والتغير نقص وموضع إدانة .. والقول إن المعرفة تكتسب مرة واحدة وإلى الأبد بحيث نرى معرفة السلف فى عالمهم مرجعًا لنا فى عالمنا . وهكذا يصادر هذا التراث الثقافى المُعاش على السعى الإنسانى للمعرفة . ولذلك لا نجد محاولة لبحث الأصول المعرفية .. أدوات المعرفة ، ومنهج التحقق المعرفى .. ولا نواجه مشكلة تتعلق بالأصول المعرفية الاجتماعية التاريخية .. أو نسقية المعرفة .. ولا تحاول الذات العودة إلى نفسها بنظرة ناقدة لفكرها ومعارفها وتستكشف أخطاءها ... وسبب ذلك أن البنية الأساسية للفكر تصادر على هذا الجهد المعرفى الاجتماعى حين تؤكد بداية أن الذات لا تعرف غير ظنون وأوهام ، وأن الحقيقة ليست عالم الشهادة .

وإن ظهرت على السطح أزمة معرفة فإننا لا نعيد النظر فى أدواتنا المعرفية ومنهج بحثنا ، بل نفسرها على الفور بلغة باطنية وليس بانقطاع صلة الفعل بين الذات العارفة (المجتمع) وبين الوجود والتاريخ الذى هو فعالية الإنسان / المجتمع فى الزمان . ذلك لأننا ، دون سوانا اهتدينا إلى الحقيقة المطلقة الكاملة . وواقع الحال ، وشهادة التاريخ ، أن المجتمع الذى يعتقد أنه وصل إلى الأجوبة النهائية ، ومن ثم يملك الحقيقة أو اليقين المطلق يزايله

القلق الوجودى ، ويستكين .. مجتمع الاستكانة .. هنا لا يتجدد حضاريًا .. أى يجمد ويذوى حضاريًا .. ويشبه هذا ما كان سائدًا في عصور الانحطاط الحضارى فى مجتمعات الغرب أو الشرق . وهنا سقط دور العقل ومرجعيته ؛ أى سقط دور الذات العارفة وعلاقاتها بالواقع الحى . وتكشف هذه الغنوصية عن آلية الفكر السلفية التى تمثل أحد العناصر الرئيسية فى ثقافتنا المُعَاشة . وتكشف أيضًا عن تعطل دور العقل الناقد دعامة حضارة — ثقافة العصر .

وثقافاتنا المُعَاشة هى ثقافة المطلق والمتجانس واللا تاريخ ، ليس الزمان والمكان بعدين حاكمين لظواهر الوجود وللفكر المتفاعل مع هذا الوجود . ثقافتنا تتجاوز أو تسقط بعدى الزمان والمكان . وحيث إنها لا تعتمد الحوار الجدلى بين النحن والطبيعة فى حركة الزمان فإنها لا تعرف التعددية ، ولا تضع الظواهر فى سياقها التاريخى . فالهوية الثقافية كمثال لها خصوصية انتقائية ومكتملة خارج الذات ، إنها ليست صيرورة تاريخية نتاج تفاعل حى إرادي داخل نسق أيكولوجى من خلال الوجود الإنسانى ، بل هوية تبحث عن الذات خارجها . ومن ثم جرى طرح موضوع الهوية الذى يروق لنا أن نسميه أزمة فكر لا أزمة فعل ،على نحو

مغلوط وزائف . إذ نظرنا إلى الهوية باعتبارها كينونة ناجزة مطلقة زمانًا ومكانًا ، وأنها سكونية غير متفاعلة أو متطورة . ولهذا شاع اختزالها فى مسمى واحد متجانس ومطلق ولا تاريخى .

ونظرتنا إلى ظواهر الواقع نظرة لا واقعية ولا تاريخية . الإسلام نتحدث عنه كأنه كينونة مستقلة خارج الذات ، واحدة موحدة على اختلاف الزمان والمكان . هذا على الرغم من أن هناك إسلامات لم نحاول أن ندرسها كظاهرة تاريخية اجتماعية انثروبولوجية ونعرف النشأة والتكوين وأسباب التعدد . بل نحن نرى الآخر دائمًا النقيض أو الضد أو الآخر المرفوض .

الغرب فى نظرنا متجانس ، كمثال ، إنه أيضًا الآخر المرفوض . والتاريخ نسيج متجانس ، أو هكذا نعرضه ، والشخصيات التاريخية مثالية . والتجانس قرين الواحدية ، واحدية الرأى والرؤية داخل الشخص والمجتمع . وهذه واحدية لا ترتضى المزاحمة وتمحو ما عداها . والفكر الأمثل ما يتجلى واحديًا متجانسًا من نسيج واحد ولا تعددية . وفارق كبير بين التجانس والاتساق المنطقى للفكر .

وتنبنى ثقافتنا على ثنائية نقيضية ، وتتحرك أو يتحرك الفكر فى إطارها ، لأنها ثقافة مطلقات ثنائية القطبية ... ثقافة إما ، ... أو ... الدين أو العلمانية على الإطلاق . الأصولية أو المعاصرة .

التقليد أو التجديد . الذات مؤمنة والآخر كافر . معىً أو عدوى على الإطلاق دون تسامح مع التباين . وأفضت هذه الثنائية النقيضية إلى الانصراف عن تكوين صورة دينامية حية عن الذات وعن الآخر بناء على دراسة وعلى فعل اجتماعى نشط ، وتكشف عن طبيعة العلاقات والحركة اجتماعيًا وتاريخيًا بين الطرفين .

ليست هناك حركة جدلية لظواهر الوجود والفكر عبر المتناقضات ، بل الوجود إما هذا وإما ذاك ... لهذا يتصف الوجود المطلق فى حقيقته بالثبات والسكون والتجانس ... ليس جدلا وفعالية متبادلة بين الطرفين النقيضين فى حركة صاعدة إلى طرف نقيض . وهذا لأنه يجرى فى فراغ ، إنه الفكر المطلق من قيود الواقع وشروط فعاليته .

ويتجلى هذا فى مواقف المثقفين التقليديين والحداثيين عند مناقشة روح العصر ...العصر هو الغرب على الإطلاق والمعاصرة اندماج فى الإطار المعرفى/ القيمى للغرب ... أو القول إن المعاصرة هى أن تستوعبنا الأصولية . ويجرى الحوار على أساس استقطابى .. الرفض المطلق ، والانحياز المطلق دون نقد لواقعنا التاريخى أو نقد للنموذج الغربى على هدى دراسة تاريخية اجتماعية نقوم بها نحن مع الإفادة بإنجازات علوم الآخرين .

لذلك فإننا بقدر افتقارنا إلى منهج جدلى فى النظر واعتبار ظواهر الوجود بقدر ما نفتقر إلى المعرفة العلمية الصحيحة التى هى إنجازنا

نحن بالأصالة ...أن نجرى بحوثنا بالأصالة عن أنفسنا واقعًا وفكرًا وفعلا على أساس منهج علمى لظواهر تاريخنا وواقعنا السَياسى والاجتماعى والإنسانى والطبيعى .. والنقد العقلانى لتجربتنا أو تجاربنا الحياتية (التاريخ الاجتماعى الباحث فى العلاقات وأركيولوجيا المعرفة) فى إطار الزمان والمكان ، وأن نجرى الدراسة النقدية استجابة لمتطلبات وتحديات فعالية اجتماعَية تفرض شروطها وتحدد توجهاتنا ، وتكون هى البوصلة الهادية لخطواتنا وليس فى إطار رطان موروث أو مستورد .

كيف نقيم حياة عصرية تأسيسًا على تقليد لا نعرفه معرفة عقلانية نقدية ؟ إننا بذلك نصنع منه أسطورة . وذات السؤال : كيف نقيم حياة عصرية تأسيسًا على عصر نهضة وتنوير وعلوم أوروبية لا نعرفها معرفة عقلانية نقدية ، إذ يتراءى لنا هو الآخر أسطورة ، أو الملاذ الأسطورة المتوهم ، ومرة ثالثة كيف نحدد هدفنا واتجاه حركتنا فى الحياة ونحن لم نضع واقعنا الحياتى بكل ظواهره السياسية والاجتماعية والتاريخية .. إلخ فى الزمان وفى المكان موضع دراسة عقلانية نقدية لتكون لنا مباحثنا الدراسية عنه ، ونظرياتنا وفلسفاتنا النابعة من قضايانا وممارساتنا فى السياسة وفى الحكم وفى إدارة شئون المجتمع وفى المعرفة وحركة الفكر والواقع ومعنى الحق والحقيقة وصورة الإنسان ..إلخ .

نتحدث عن التراث والحقيقة أن هناك تراثات ؛ فضلاً عن أننا نتحدث عنه بغير علم إذ لا نملك علمًا أو مبحثًا علميًا عن التراث يتناول النشأة والتكوين والتطور والتفاعلات .. إلخ فى ضوء علوم محددة مثل سوسيولوجيا المعرفة والأنثروبولجيا وعلم النفس ومباحث الفكر الفلسفى . ونتحدث عن التاريخ السياسى وليست لدينا فلسفة سياسية اعتمدت النقد التاريخى السوسيولوجى لنظم الحكم والعلاقات السياسية ودور السلطة فى مجالات النشاط الفكرى والقيمى والاجتماعى . ونتحدث عن الدولة وعن اندماج السلطتين الدينية والزمنية دون أن تكون هناك دراسة نقدية تاريخية أنثروبولجية اجتماعية فلسفية تفسر لنا تاريخ الدولة وأسباب اندماج السلطتين أى الدمج بين الإلزام الدينى والإلزام السياسى ودلالة ذلك وأثره فى الموازنة بينهما فى التطبيق العملى .. وأفضى خواؤنا الفكرى إلى إطلاق شعارات مثل لا وطنية وهى شعارات من شأنها أن تقوض دعائم نهضة المجتمع . ونسأل هل هناك ضرورة داخلية فى الحضارة / الثقافة العربية تفسر الخلط المستمر بين السلطتين الزمنية والدينية ، وكانت أيضا أحد أسباب تفكك عرى الإمبراطورية الإسلامية ؟ إن سكان الصحراء .. أو حياة الرعى والارتحال لا تعرف الثبات والاستقرار على الأرض .. لذلك لا تعرف معنى الوطن والانتماء ليس للأرض ولكن للشيخ الممثل للفكر والعقيدة .. الشيخ هو الوطن ومعلم الانتماء وهو العقيدة فى آن واحد ..

والملاحظ أن حياة البدو لا تعرف مثل حياة الزراعة بيوت الأولياء والمزارات المقدسة الحامية للأرض والناس .

وروح العصر هى المعرفة العلمية التى هى نمط خاص من علاقة الوجود الإنسانى بالطبيعة وبالنفس .. علاقة النظر والنظرية .. صياغة قوانين أو قواعد عامة تكشف عن اطراد الظاهرة والإجابة عن السبب والكيف والقدرة على التنبؤ .. إنها صورة خاصة من صور تأمل الواقع ومعالجة ظواهره ، أى التعامل معه نظريًا وتجريبيا وفقًا لقواعد منهج البحث العلمى ، وهو ما تتمايز به على صور تأمل ومعالجة فى الحضارات السابقة . والمعرفة العلمية معرفة هادفة أو غرضية ، إنها تستهدف نفعًا دنيويًا مؤسسًا على بحث منهجى .. معرفة علمانية ..

لهذا فإن المعرفة العلمية وثقافة العلم تتطور إطرادا على أساس قواعد محددة لاستخدام المعارف ، ولاكتساب معارف جديدة ، ويجرى التطور انطلاقًا من المعارف المتوفرة ، ومن وسائل الاكتساب التى تجرى مراجعتها ، وهى بذلك أيضا نشاط اجتماعى وليست تلقينًا ولا تأملا ذاتيا فرديا . إنها النقيض التام لثقافة التجانس والإطلاق واللا تاريخ .

وعملية الصياغة النظرية هى التى تجعل المعرفة العلمية موحدة واجتماعية الطابع . إنها تأمل نظرى ومنهجى للمعارف المتاحة وصياغتها نسقيًا فى ضوء قواعد منهج محدد للكشف عن قوانين

الظواهر المطردة وإثباتها فى لغة خاصة هى لغة العلم قابلة للتحقق من صدقها وزيفها محددة المدلولات ، نافية لأى التباس . هذا بينما ثقافتنا المُعاشة ترسخ نهج التأمل النظرى الخالص المتسق مع خاصية الغنوصية أو الباطنية ..

وجدير بالملاحظة ، ولبيان أوجه المفارقة بين ثقافة العلم وثقافتنا المعُاشة ، أن التأمل يكون على أحد وجهين :

١ - تأمل الحدث فى اطراده وانتظامه والإجابة على كيف ولماذا وكم من المرات ؟ وحصاد الحدث ومتلازماته وشروطه . وهذا تأمل ينتج علمًا .

٢ - تأمل الحدث في ذاته أى باعتباره تجليًا ، والقفز منه دهشة وإعجابًا إلى خارج الحدث .. إلى قوة هى الفاعل ومحور التأمل . والثقافة القائمة على هذا الطراز من التأمل ليست ثقافة علم ، ومن ثم ليست ثقافة فعالية إنسان لتغيير الواقع والخطو نحو المستقبل بخطوات مرسومة .

والتفكير العلمى المنهجى ، أو ثقافة العلم ثقافة نهمة إلى المعرفة . التفكير العلمى مدفوع بقوته الذاتية وبإنجازاته إلى المزيد دون أن يطرح للمناقشة أو التساؤل المعارف الدينية فهذا ليس شأنه وليس اختصاصه . ولكن ثقافتنا المعُاشة ثقافة اكتفاء فالحقيقة المطلقة

نملكها . إنها ليست ثقافة فضول معرفى علمى. أو لنقل ، إن جهد المرء فى مجال الفضول منصرف عن محاولة الفهم العلمى لظواهر الدنيا وتوظيفها والتحكم فيها وتدبيرها . ولهذا لم نسهم فى الإنجاز ، وعشنا أسرى تصور أن الحداثة هى الاستهلاك وكما قال أحدهم إن الله سخر لنا الغرب ..

وإن تعطل خاصية الفضول المعرفى العلمى والمساهمة فى الإنجازات خلق مناخًا ثقافيًا تقليديًا قائمًا على الاستظهار . فالعالم ليس الباحث بل من استظهر أخبار الموك والفقهاء وعلوم السلف . وغرس هذا المناخ فينا خاصية ثقافية هى الانكفاء على الذات . واقترنت هذه الخاصية بعزوف عن دراسة تواريخ حضارات الشعوب .. حضارتنا هى الأكمل وإن لم نفهمها ، وواجب الآخرين الاقتداء بنا وإن لم ننجز شيئًا .. دون أن نسأل كيف نكون قدوة فعلا وفكرًا وكيف نكون أهلا للعطاء الحضارى .

الطريق إلى الاندماج فى حضارة العصر :

إننا حين نناقش المعاصرة تتجه الأذهان إلى الغرب ؛ ويظنها البعض أنها تعنى الغرب بكل جوانبه وتناقضاته المحلية الاجتماعية والتاريخية وليس آلية العصر كمنهج . ولهذا تظل داخل إطار صراع أبدى بين أصولية ومعاصرة . وهذا طرح زائف للقضية .

ولكن إذا أخذنا المعاصرة على أنها منهج وأدوات تعامل الإنسان (تقنيًا وفكريًا) على مستوى العصر مع الواقع لانتفى التناقض .

روح العصر ، كما قلنا ، هى العلم منهجًا فى فهم الواقع اعتمادًا على العقل الناقد بهدف التغيير . والعلم هنا ليس مجرد تحصيل معارف ، أو استهلاك منجزات . فإن من يرتضى لنفسه حياة المستهلك ،سوف يجف نبع العطاء المادى والفكرى عنده ، ويظل عميلا للمنتج بالمعنى الاقتصادى والسياسى والاجتماعى . وإنما نقول العلم باعتباره ظاهرة اجتماعية ثقافية ، وباعتباره نسقًا معرفيًا متحدًا مع بنية المجتمع ، صانعًا لها ، وهو نسق لأنه ليس معارف متناثرة بل منهجًا موظفا فى خدمة بنية المجتمع يعمل على تماسكها واطراد تقدمها ، ومواجهة تحدياتها . ولهذا نراه أيضًا مؤسسة اجتماعية ، وعنصرًا حضاريا ، أى ركيزة الحضارة .

وثقافة العلم هى ثقافة التغيير ، تغيير العالم وليس مجرد فهمه أو تأمله أو فك طلاسمه ، أو الوقوف أمام تجليات وإطلاق زفرات الدهشة والإعجاب التى ترسخ مشاعر الدونية والنقص . بل إنها ثقافة قوة الإنسان والثقة بالنفس والقدرة على التغيير ورسم المستقبل . والتغيير يعنى ابتكار النظريات ، وابتكار التكنولوجيا ، وكذا التأثير على البنى الاجتماعية ، ومن ثم التأثير فى مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية .. إلخ وأيضًا التغيير الثقافى لأنه يغير البنية

الفكرية ويعيد قراءة الواقع والموروث .. إنها بإيجاز ثقافة الاستجابة والتحدى فى إطار العلم .

إن مشكلة الاندماج فى عصر العلم مشكلة ملحة وحادة ومعقدة فى جميع بلدان المستعمرات السابقة ، أى البلدان التى فقدت زمنًا مناخ وعوامل التضامن الاجتماعى ، وتعطلت فيها القدرة على الفعل الاجتماعى الموحد ، وهما أساس الانتماء ووحدة الهدف . وباتت ثقافتها تجليًا لمظاهر وأسباب التخلف .... صورة العالم ورموزه ونهج التعامل معه من إرث الماضى ؛ وصورة الإنسان الذى طحنته قرون من البؤس الفكرى والاجتماعى والاستبداد السياسى وتشوهت ثقافته واختل شعوره بذاتيته ، وتشكل هذه جميعها معوقات وجودية ومعرفية تحول دون التلاؤم مع العصر . ذلك أن كل عصر بحاجة إلى قراءة نقدية جديدة ، وتأويل جديد ، وتطوير إبداعى للتراث ، مثلما هو تطوير إبداعى لثقافة جديدة وأدوات جديدة .

وتظل المشكلة من حيث الموضوع ، ومن حيث الحلول المقترحة رطانًا وهراء إذا ما فقد المجتمع القدرة على الفعل الإنتاجى الإبداعى النشط وفق صورة مشتركة وهدف مشترك للمجتمع .. إذ على أى نحو يكون جهدنا فى سبيل إعادة تأويل التراث ؟ وعلى أى نحو تكون تنشئة جيل المستقبل وتعليمه من حيث المحتوى والمنهج ؟

ينبغى أن يكون بحثنا فى ضوء مشكلات تفرضها فعالية المجتمع فى مجال السياسة مثلا وشكل الدولة ونظام إدارة المجتمع ، أو دور الإنسان وإيجابيته ..الخ .

معنى هذا أن قضيتنا الأولى تتمثل فى استحداث معادلة تحكم العلاقة بين طرفين : القديم والجديد . وأقول معادلة وليست مصالحة توفيقية تلفيقية . إنها معادلة يصوغها ويحدد إطارها تفاعل قائم على وعى جديد تتمثل جذوره فى العمل الإنتاجى الإبداعى ومنهج علمى فى العمل وفى التفكير .

إننا لن نخطو إلى حضارة العصر والمستقبل إلا بالسير على قدمين : **أولاً** نقد العقل العملى والنظرى فى ضوء دراسة علمية . **وثانيًا** استيعاب علوم العصر منهجًا ونظريات وآلية تفكير فى ظل مناخ تفكير علمى وتنشئة اجتماعية تصوغ إنسانًا معاصرًا ومجتمعًا قادرًا على الإسهام والعطاء نهما للتحصيل والإنجاز .

والوصول إلى هذا الهدف يقتضى حشد وتعبئة جهود الأمة الاقتصادية والإعلامية والتعليمية ، وتعبئة جهود العلماء والمثقفين من أجل دراسة سوسيولوجية أنثروبولوجية لتاريخنا الاجتماعى الثقافى ووضعه فى صورة نسقية علمية جديدة .. أى عصرية فى اتساق مع هدف منشود . وكذا حشد الجهود لتحويل دلالات

ومضامين روح العصر إلى وقائع وحقائق مجتمعية دون القفز على واقعنا إلى رموز شكلية أو الهرب إلى رموز بالية .

كذلك يقتضى الوصول إلى هذا الهدف إعادة النظر على أساس عقلانى نقدى إلى الرصيد الفكرى الذى صاغ به الغرب ، ومن قبله الغزاة ، إطارنا المعرفى القيمى أعنى ثقافتنا المعُاشة . وأيضا نقد حداثة الغرب والتنوير الغربى فى محاولة للوصول إلى رؤية نسقية لتنوير عالمى جديد . لقد كان التنوير تنويرًا أوروبيًا .. أوروبى الجهد والغاية .. إنه ابتكار الرجل الأبيض فى ظل حضارة الغرب . تحدث عن العالم وكان يعنى أوروبا ؛ وعن الإنسان ويعنى الرجل الأبيض الأوربى فكان عرقى المضمون استعمارى الهدف ثم إنه كان رهن زمانه ومكانه أعنى رهن شروط وجودية لعصر بذاته . والمطلوب الآن تنوير يرد الاعتبار للإنسان بعامة ، أسود أو أبيض أو أصفر ، دون اعتبار لعرق أو دين أو لون ، تنوير فى ظل حضارة عالمية نريد أن نسهم فى إبداعاتها .

إننا على المستويين المادى والروحى نعيش على أعتاب حضارة ثقافة واعدة تبشر بعلاقات اجتماعية جديدة وإنسان جديد من حيث الإمكانات والقدرات والخواص الذهنية والاجتماعية بل

والعصبية أو البيولوجية ، أى على الطريق إلى طور ارتقائى جديد .
نحن بصدد عالم يصوغه الإنسان بقدراته العلمية والتكنولوجية .
فى حضارة عصر الرعى والزراعة بدت الطبيعة مانحة واهبة وتقليدية سكونية ، وفى عصر الصناعة بدت الطبيعية موضوعًا للفهم وللتغيير .. وها نحن على أبواب حضارة تتخذ من مفهـوم المحيط العقلى Noosphere مذهبًا إنسانيًا جديدًا يقتضى من الباحث أن يكون عنصرًا إيجابيًا .. أى الإنسان والطبيعة معًا فى تطور مشترك وفعاليـة متسقة .. وحدة الإنسان والكون حيث الفكر والإبداع المادى والثقـافى والطبيعى تخلق جميعًا النسق الأيكولوجى أو المحيط العقلى الجديد الذى يعمل الإنسان فى إطاره ومن خلاله وقد تجسد فى الوعى إطارًا معرفيًا قيميًا جديدًا .

ولكن أعود لأقول : الثقافة ثقافتان .. ثقافة هى الوجه الآخر المكمل للإبداع الحضارى بحيث يشكل الإبداع المادى والثقافى متلازمة حضارية واحدة ؛ وثقافة قومية هى حصاد ومحصلة فعالية اجتماعية على مسرح الجغرافيا تحمل خصوصيات محلية تعبيرًا عن النسق الأيكولوجى والاجتماعى الذى نشأت وتكونت وتطورت فيه وهى بدورها بؤرة تناقضات وصراعات اجتماعية محلية . وهذه هى الثقافة التى نناهضها وتتنافى مع خصوصيتنا ، بينما نعبئ

جهودنا لإبداع ، ولا أقول لاكتساب أو استيراد ، الوجه الثقافى لحضارة العصر ، أى نابعًا من داخلنا استجابة لتحولات موضوعية وثمرة لتلاقح ثقافى يعبر عن تفاعل متكافئ .

لن نواجه العصر إلا بلغة العصر ، أى بفكر عصرى ، فكر قرين عمل ، نقرأ به تاريخنا وواقعنا ونرسم على هديه مستقبلنا ، ونصوغ ثقافتنا .. فكر ننمى به وعينا التاريخى ، ونفيد به فى تفكيك الوعى الأسطورى المهيمن على أذهاننا . وأن نعمد إلى إحلال الصورة التاريخية محل الصورة اللا تاريخية أى محل الصورة الأيديولوجية أو الأسطورية .

لنتعلم الإبداع

الإبداع تجدد حضارى :

الحياة الإنسانية ليست استطرادًا عفويا أو عشوائيًا شأن الحياة النباتية أو الحيوانية ، بل هى فعالية .. تجربة وخطأ .. منبهات واستجابات محملة وعيًا تاريخيا وهدفًا مستقبليا .. إذ تتلقى المنبهات ضمن إطار الوعى وعلى أساس انتقائى من بين تيار الخبرات .. وتجريد يعلو به على مستوى الحياة الخبرية المباشرة إلى مستوى العقل الفعال ، الذى هو ، من حيث المحتوى ، نتاج خبرات التاريخ ، ووعى بقوانين حركتها فى الواقع ومنطقها داخل الوعى ... وبذا لا تكون الاستجابات امتدادًا واحدًا متجانسًا شأن التطور البيولوجى ... بل هى بناء قائم على الفهم والتعبير أو التجديد الهادف ، والفهم يجرى فى إطار رصيد الخبرات الفعال المعاش أى التراث وتصادمه أو تفاعله مع المنبهات الجديدة والمتجددة التى تفرضها الطبيعة والبيئة الاجتماعية التى يخلقها الإنسان وتسهم هى فى خلقه .

وسلوك الإنسان هنا إزاء المنبهات الجديدة إما التزام بما ترسب

لديه من خبرات سابقة باعتبارها المظلة الواقية التى يأنس لها وينطلق منها وفى حدودها ، وإما اقتحام محكوم بقواعد المنطق والعلوم ...إما أن يفكر انطلاقًا من خبرات سابقة فقط أو انطلاقًا من النافع من حصاد هذه الخبرات فى تفاعله مع واقع متجدد وفى إطار السيادة على خبرات الماضى أعنى امتلاك حق تجاوزها . حين نقول اقتحام محكوم بقواعد المنطق والعلم ، فذلك لأن الإنسان أو الوجود الإنسانى فعالية ؛ وهذه الفعالية نشاط (فكرى وعملى معًا) له قوانينه الموضوعية ويجرى فى ظروف اجتماعية وطبيعية لها قوانينها أيضًا ، والوجود الإنسانى الاجتماعى حسب هذا التصور ، هو الدينامية التاريخية لهذا النشاط والفعالية .. وهذا الوجود الإنسانى داخل فى إطار الوجود الطبيعى ومتداخل معه .. والإنسان إذ يحكمه نشاط القوانين الموضوعية لوجوده إلا أنه ، بفضل ما يملك من وعى وعقل ، فى وضع يؤهله لأن يخلق ظروفًا جديدة لنشاط القوانين ، بل وإلى تشكيل وجود جديد له قوانينه الجديدة .إن الفهم والوعى القائم على التفكير لا يتم عشوائيًا بل فى إطار ما نسميه التفكير العقلانى ، أعنى وفقًا لقواعد هى قواعد التفكير العلمى فى عصرنا الراهن ... ومن ثم فإن كل جديد يفضى من خلال هذا التفكير إلى رؤية جديدة حاكمة لسلوك الإنسان تصوغ السلوك فى إطار جديد .. أعنى إبداعًا جديدًا .. أو نشاطًا تجديديًا إبداعيًا .. فالإبداع ليس تخيلا أو وهمًا

بل تفكيرًا تحكمه قواعد المنطق وصولاً إلى الجديد ..الذى يغدو مصدرًا لتحولات هادفة يحققها الإنسان وفى العالم نفسه .

ويمكن فى ضوء ما سلف النظر إلى المجتمعات فى تاريخ تطورها من زاوية « النشاط التجديدى » : متى يتوفر هذا النشاط ؟ ومتى ينعدم ؟ وفى أى ظروف ؟وما مظاهر ذلك تعبيرًا عن التجديد الحضارى وحيوية المجتمع وقدرته على أن يجدد ويطور ذاته . ثم إنه معيار القدرة على العطاء والثقة بالنفس فى التفاعل الحر .

والإبداع نفى لإطار تقييدى ، وتمرد على نهج تقليدى وصولاً إلى نهج جديد فى تناول ظواهر الواقع الذى تأزم وجمدت حركته أو فقد خصوبته فلم يعد يلد جديدًا من خلال إنسان خضع للتقليد ... وبهذا يكون الإبداع ، كل فى مجال تخصصه ، إيمان بالتغيير وبالتجديد أبدًا ، وقدرة على الطرح الصحيح للمشكلات الأساسية ، والتماس للحلول الصحيحة من بين الواقع المتنافر .. إنه خروج على النص وقدرة على التحرر من قيده ، والتماس حل وصياغة إطار جديد ..وبذا يكون الإبداع أداة تكامل مع المجتمع وارتقاء به واندماجًا فيه ، وبناء له ، وغرسًا لقيم جديدة ... ودون ذلك الانسحاب إلى خارج ساحة التاريخ . ومن هنا يبين خطأ وخطل الظن أن ثمة مشكلة اسمها أصالة ومعاصرة ، وكأنها

لب أزمتنا ، وهى فى الحقيقة مشكلة زائفة تقوم على تصور للذات والآخر باعتبارهما جوهرين خالدين أبديين على صورة واحدة وعدم الاعتراف بالتاريخ ، وإن كانت ثمة مشكلة فهى مشكلة الإبداع .. أو التغيير الإبداعى .. المجتمع المفعم بزخم النشاط التجديدى ..وإن عصور الازدهار الحضارى هى تلك التى يبلغ فيها هذا الزخم ذروته .

لقد بات هذا النشاط ضرورة من أجل النهضة وأن يشمل التغيير كل مجالات حياتنا الاجتماعية والعملية .. والملاحظ أن النشاط الإبداعى يتسع نطاقه إبان الثورات فى مجال إنجاز الأعمال والارتقاء بأساليبها والتحولات الجذرية فى النسق الاجتماعى والعلم والثقافة .وهذا ما نلحظه فى عصرنا الراهن ، ولكن فى مجتمعات غير مجتمعاتنا ، حيث نشهد تحولا جذريًا فى جميع مجالات النشاط الحيوى للبشرية ، إذ نلحظ انفجارًا فى النشاط الإبداعى الذى يكاد يكون عاما وسمة للعصر ويوصف بأنه النشاط الإبداعى الواسع النطاق Mass Scope of Innovative Activity وأضحى نجاح أو فشل الأفراد والمؤسسات والمجتمعات رهنًا بقدرتها على خلق إبداعات وتجديدات متباينة ، مثلما هو رهن بقدرتها على تقبل هذه الإبداعات والإسهام فيها .

فالمؤسسات الاجتماعية : صناعية أو ثقافية أو سياسية أو فنية بحاجة إلى أفكار إبداعية ، وكذلك الأمم .والإبداع فى هذه المجالات جميعها هو إبداع علمى بمعنى أنه نتاج بيئة مشربة بالعقلانية ..بيئة تحتكم إلى قوانين العقل ، وترتكز فى نظرتها إلى العالم على الفهم والمعرفة العلمية وإيمان بجلال قيمة الإنسان العام : وسعى دائب إلى التغيير فى حركة ارتقائية صاعدة .. تغيير عناصر المعادلة الموروثة فى تجاوب مع التغيير الارتقائى للواقع المتجدد ؛ وتغيير فى الإطار الفكرى الذى تعمل من خلاله . إذ لم تعد مهمة الإنسان الآن قاصرة على فهم العالم أو فك طلاسمه ، بل تغيير مطرد أبدًا للعالم وتجاوز للذات .

والتغيير هنا ليس تكنولوجيا جديدة فقط بل بنية اجتماعية وسياسية ترسم مصير المجتمع والمجتمعات البشرية ، وهو ثقافة أيضا لأنه يغير البنية الفكرية ويعيد قراءة الواقع الحديث ، ويضفى قيما جديدة ، ويحدد أساليب جديدة فى فهم الواقع والتعامل معه ... ولهذا يقال إن التغيير هو الإبداع أو لنقل تغيير إبداعى ، وهو قصب السبق وفرس الرهان بين المجتمعات والمؤسسات بحيث إن مستقبل المجتمعات رهن بالاكتشافات والتجديدات الإبداعية وأسلوبها فى تناول مشكلاتها وتوظيف كل هذا لإعادة بناء نفسها .

ولكن الإبداع رهن بطبيعة ثقافة المجتمع والإطار المؤسسى

للمجتمع الذى هو جزء من الثقافة التقليدية التى تحدد نهج التنشئة وقيم التعليم ومصارف طاقة الإنسان ونطاقها ، والإبداع حصاد هذا كله ، وقوة مؤثرة عليه وأداة لتغييره فى آن واحد .

معنى الإبداع :

بداية نحن ننظر إلى الإبداع فى إطار فكرى تاريخى مغاير تمامًا لإطار تعريفه القاموسى التقليدى فى قواميس اللغة العربية . إذ يعنى الإبداع والابتداع لغة : إيجاد شىء غير مسبوق بمادة ولا زمان ويعنى ما يطرأ عليه وجود على غير مثال سابق ، ومثل هذا التعريف ينطوى على معنى الخلق من عدم ،ونفى لأى وجود سابق عليه ، أو نفى لتاريخية الإبداع ، بل ونفى لارتكازه على منطق الفكر وإنجازات العلم ، ومثل هذا المعنى غير وارد فى الإطار الفكرى لتعريف الإبداع الآن .

ثانيًا : ننزع إلى الظن بأن الإبداع موهبة فردية ، وملكة فطرية وقسمة سواء بين أصحابها الذين هم صفوة نادرة ، ثم إن الإبداع مقطوع الصلة بظروف التعليم والتنشئة ،ونحن نكاد نقصر هذه الملكة على الأدب والفن ، ولعل هذا بحكم طبيعة ثقافتنا الاجتماعية التقليدية ، وهى ثقافة كلمة ، وترى اللغة المجال الأول بامتياز للتعبير والتجديد ، ثم بعض الفنون التجريدية الأخرى دون ظواهر الواقع التى هى مجال البحث العلمى وبعض الفنون التشكيلية .

إن الفارق بين الإبداع العلمى والإبداع الفنى فارق من حيث المجال لا من حيث آلية الإبداع والخصائص الفعلية لهذه الآلية ، إذ يرى كثيرون أن عملية الإبداع الفنى تشبه إلى حد كبير عملية الكشف العلمى ... كلتاهما تجريان فى مستويات عميقة من الوعى حيث يتم التفاعل بين إطارات نفسية مستقلة فى لحظة يكون فيها الذهن على أعتاب الوعى واللاوعى ، ويذهب الدارسون لعملية الإبداع إلى أن خبرات الحياة يسجلها الذهن فى صورة أبنية ذات مستويات أو أطر أو مخططات Schema وتحمل معها شحناتها العاطفية الملازمة لها واللصيقة بالأنا ، ويتلقى المرء المنبهات أو المعلومات الواردة من الخارج ، ويحاول أن يُشكلها أو يلائمها مع أطر الخبرات السابقة . وقد يحدث أن يتعذر ملاءمة الوافد الجديد من المنبهات مع الأطر القائمة أو السائدة من المعارف والأفكار ، ومع الإطار النفسى الممثل لسلسلة الخبرات النفسية وطبائع الشخصية الإنسانية من مرونة أو ثبات وجمود .

وهنا حيث تتعذر الملاءمة ، وتستعصى محاولات دمجها قسرًا فى الإطارتحدث أزمة لها مظاهرها النفسية والفكرية ويكون حسم الأزمة بتجاوز الإطار التقليدى إلى إطار جديد . معنى هذا أن عملية الإبداع تجرى فى سياق صراع أو تناقض بين إطار وآخر ؛ ونفى أحدهما للآخر .

والنفى هنا نفى جدلى بمعنى إنه قائم على علاقة تفاعل وأخذ وعطاء بين الإطارين وإبراز حقائق وعلاقات جديدة بين الأشياء وهذا يأتى من خلال مرونة الاتصال ، وسماحة التفاعل والتداخل بين الأطر فلا تكون ذات جدر صماء ، أى أن التجديد هو النقيض التام للجمود الفكرى والعقائدى . ويحدث هذا التفاعل فى حالة البحث عن وسائل الإبداع الفنى والعلمى ... تفاعل بين الحقائق المنظومة داخل إطارين أو أكثر من أطر المعرفة والتجربة الإنسانية ، ويفضى إلى إطار جديد له تأثيره على مجالات المعرفة والخبرات الإنسانية .

وقد تزايد الاهتمام بفهم فعل الإبداع ذاته والعمليات التى يرتكز عليها ، والسمات المميزة للمبدعين ، وبيان سبل تغذية الإبداع والاستزادة منه خاصة مع غلبة الاعتقاد بأن الإبداع يرتكز على أساس واحد فى مجال العلوم والفنون ، مما يعنى أن هناك معاييرًا لتقدير الدرجة الإبداعية فى الناس والمنتج الإبداعى ..وهو ما يعنى وضع تعريف إجرائى لمعنى الإبداع .

وإزاء تباين التعريفات واختلاف زوايا النظر ، وتعذر الإجماع على معنى الإبداع اتجهت الأنظار إلى تعريف الإبداع فى ضوء نتاج عملية الإبداع وعلى هدى عملية الإبداع ذاتها . لهذا يشار

إلى المنتج على أنه هو مدلول الإبداع . ولكن يبقى سؤال : من الذى يحكم على أن هذا العمل إبداع أم لا ؟خاصة وأن أحداث التاريخ شاهد على أن كثيرًا من الأعمال الإبداعية لم يعترف بها أهل زمانها واستنكروها وظلت سابقة لعصرها .

وحاول علماء عديدون التوصل إلى عناصر مشتركة لتعريف الإبداع بحيث تحظى بأكبر قدر من القبول . ونذكر من هؤلاء عالم النفس الاجتماعى إيرفنج تايلور Irving Taylor الذى قام بتحليل أكثر من مائة تعريف بمعنى الإبداع ووجد فيها شواهد على وجود خمس مستويات للإبداع (١٩٥٩) . وقال إنها تختلف فيما بينها من حيث العمق والنطاق أكثر مما تختلف من حيث الطراز ، ورأى أننا نخطئ إذ نمايز بين إبداع علمى وآخر فنى نظرا لأن الإبداع ينطوى أساسًا على نهج أو أسلوب فى تناول المشكلات والذى يختلف أساسًا عن التدريب التقليدى أو النهج المعتاد .

وانتهى تايلور إلى أن الإبداع خمسة أنواع :

١ - إبداع تعبيرى Expressive Creativity ويتمثل فى الرسوم التلقائية للأطفال وهو أكثر أساسية وضرورة .وهو تعبير مستقل دون اهتمام بالمهارات والتقنيات ونوعية المنتج .

٢ - إبداع إنتاجى Productive حيث يوجد ميل للتغيير أو اللعب

المفيد لحساب التكنيك ، وهو أكثر واقعية ، ويعبر عن الوقائع بصدق أكثر .

٣ - إبداع ابتكارى Inventive Creativity يتميز بالمرونة فى إدراك علاقات جديدة غير مألوفة بين أجزاء منفصلة عن بعضها ولكنها موجودة فى الواقع .

٤ - إبداع تجديدى Innovative ونجده عند قلة من الناس ؛ وينطوى على تعديل هام للقواعد الأساسية أو المبادئ الأساسية لمجال بأكمله فى العلم أو الفن .

٥ - إبداع طارئ ليس على مثال Emergentive وهو إبداع غير مسبوق حيث يظهر على نحو غير مسبوق . مبدأ جديد كل الجدة أو رؤية أو تصور .. ويظهر على مستوى أساسى أو تجريدى . نرى صورة الإنسان على سبيل المثال يبدعها الفنان فى شكل تجريدى جديد ، ولكنها تلتزم ببعض الصفات البشرية وإن تمايزت جذريا عن الفن التمثيلى Representative .

وفى جميع الأحوال لا يكون الإبداع مقطوع الصلة بالواقع بل هو امتداد وانفعال ، وتجاوز لأزمة وإطار إلى إطار جديد يمثل حلا للأزمة وارتقاء بالوضع . ولهذا نجد المبدع له مدرسته الجديدة التى تقدم بإبداعها العلمى أو الفنى أسلوبا جديدا فى تناول الظواهر

انطلاقا من إطار فكرى ونفسى . ومن هنا عنى الباحثون بدراسة عدد من المسائل المتعلقة بالعملية الإبداعية منها دوافع الإبداع ، وخصائص العملية الإبداعية ، والسمات المميزة للشخص المبدع ، وأيضا العلاقة بين الفانتازيا والإبداع ، ومراحل العملية الإبداعية ودور التنشئة والتعليم فى تفتح وازدهار القدرات الإبداعية .

دوافع الإبداع :

ثمة تفسيرات عديدة لفكرة الحافز فى الإبداع . إذ نجد أصحاب التحليل النفسى ، على سبيل المثال ، يختزلون حوافز الإبداع إلى أسباب ذاتية خالصة مثل تحقيق الذات ، والشعور بعدم الرضا ، ومحاولة الهرب من روتين الواقع ، والإعلاء من قيمة موضوعات تقوم بدور تعويضى . وهناك من يقسم دوافع الإبداع إلى ثلاثة عناصر ولكنها متكاملة .

١ – دوافع خارجية وأهداف عملية مثل الثواب المادى والحوافز الخارجية .

٢ – دوافع تتعلق بالعمل الإبداعى ذاته ، أى النشاط المصاحب للعملية الإبداعية .

وتنقسم الدوافع الشخصية إلى :

(أ) دوافع عامة : الحماس والنشاط فى تحقيق الأهداف

الشخصية – الانفعال بالأشياء ،الانجذاب لما هو غامض أو مركب .

(ب) الحاجة إلى التحرر من الأفكار الشائعة والإحساس بالاستقلالية أو التخلص من الأفكار التقليدية بعد أن فقدت رونقها أو فعاليتها على الرغم من نظرة الآخرين إليها باعتبارها حقائق ثابتة . وهذا الدافع رهن شعور الثقة بالنفس والاستعداد لقبول التحدى ومواجهة المواقف الغامضة والشك فيما هو موضع إيمان راسخ .

(جـ) توجيه الأفكار نحو تقديم حلول جديدة مبتكرة ، أى لوجود حاجة لتقديم مساهمة مبتكرة قيمة .. تقديم صياغة خلاقة إبداعية لما يحس به من مشكلات .. وهو ما يتأتى من خلال معايشة المجتمع ومشكلاته . ويتضح هنا خطأ القول للنشء دعوكم من مشكلات مجتمعكم واتركوها للكبار .

(د) الإحساس بالمسئولية الاجتماعية . إذ أن المبدع يعايش أو يعانى مع المجتمع ، ويستشعر مسئولية إزاء حل المشكلة ، لهذا لابد من توفر دافع للاتصال بالآخرين والتفتح على الخبرات الجديدة ..وأن يوجه إبداعاته وفق منظور اجتماعى أشمل يساعده على تعبئة طاقته نحو إبداع أعمال ووسائل أو مكتشفات جديدة تساعد على التقدم بحياة الناس .

صفات المبدع :

المبدع فرد لا يختلف فى طبيعته ونوعيته عن الآخرين بل يختلف من حيث مقدار الخصائص والقدرات الدالة على الابتكار والتجديد ، بمعنى أن بالإمكان توجيه عملية التنشئة الاجتماعية لزيادة مقدار هذه الخصائص وتنشيطها ، وليس لإلغاء الفروق الفردية فيما يتعلق بانتظام الوظائف العقلية المختلفة وقدرات الابتكار والتجديد على نحو ما نجد عند نماذج تاريخية مثل بيتهوفن وابن سينا وأينشتين .

ويرى بعض الباحثين أن الإبداع قدرة عقلية عامة تهيىء الشخص للبحث عن الجديد وإنتاجه ، وأن الشخصية المبدعة تتصف بصفات عديدة بعضها تعليمى وبعضها انفعالى . ومن هذه الصفات :

١ – الطلاقة وهى طلاقة فكرية Ideational Fluency أى القدرة على إنتاج أكبر قدر ممكن من الأفكار عن موضوع معين فى وحدة زمنية ثابتة . ويتصف المبدع بالقدرة على إدراك أفكار عديدة عند الاستجابة لموقف واحد وهذه هى الطلاقة الترابطية Associational وتعنى القدرة على ربط أو اكتشاف الرابطة بين أكبر عدد من عناصر الظواهر فى محيط إدراكه . وغنى عن البيان أن هذا كله يرتكز على اتساع رصيد المعارف وتنوعها وشمولها ، بمعنى أن

الذات المبدعة تتصف بالموسوعية فى تخصصها وفى المعارف ذات الصلة وقضايا وأفكار العصر .

٢ – الفضول المعرفى ، والأمانة الفكرية ، وقبول المسئولية لأداء عملية ما وتحمل نتائجها ، والدقة الموضوعية .

٣ – المرونة الفكرية أى القدرة على تغيير الحالة الذهنية والأفكار كلما تغير الموقف ، أى الاستعداد لهجر قنوات ومسارات وأطر قديمة واتخاذ وجهات جديدة على أساس عقلانى منطقى ... والمرونة هنا عكس التصلب الذهنى والجمود الفكرى أو العقائدى الذى هو صفة أصحاب الأفكار الثابتة الذين يصرون على مواجهة الحياة من زاوية محددة مهما تنوعت المواقف ، ولهذا فإن من صفات الشخصية المبدعة سماحة الفكر والتفتح العقلى والاستعداد لتقبل أى موضوع بروح حيادية قدر المستطاع مع عشق للجدَّة .

٤ – الأصالة – وتعنى القدرة على إنتاج الحلول الجديدة والطريفة إذ لا يكرر المبدع أفكار الآخرين بل نراه نزاعًا إلى التجديد ورؤية الأشياء رؤية جديدة من إطار جديد فيكشف عن جوانب غير منظورة سابقة . ومن ثم القدرة على اكتشاف علاقات بين الأشياء والظواهر وخلق نظام جديد من العلاقات بين الأشياء وبعضها البعض .. وترتيب عناصر غير مترابطة فى السابق وإعادة ترتيبها

فى صياغة جديدة . ولهذا نراه يكثر من التساؤلات التى يطرقها عندما يتصدى لحل مشكلة ما أو مناقشة مواقف إشكالية .

٥ – الإيمان العميق بعلاقة العلة والمعلول ، وبأن هناك أسبابًا ومسببات لكل شىء يبحث عنه ، والاستعداد للتفكير على نحو نسقى منطقى ، مع المرونة والثبات الحسم عند المواجهة ورفض النتائج المبشرة غير الناضجة ، وأيضًا رفض التحديد القاطع الذى يسد الطريق أمام مواصلة البحث والتجديد .

٦ – الصبر والدأب والمثابرة مع رغبة باطنية لنيل اعتراف وتقدير مجتمعه المتخصص أو العام ، وتحقيق ذاته لا عن طريق التوافق بل التمايز والتميز ...ومن هذه الصفات أيضًا القدرة على التفكير العميق فى ما يراه لغزًا محيرًا ، والقدرة على التركيز ، ويتحلى بالشجاعة والاستعداد للدخول فى صراع مع الخصوم الفكريين حتى وإن كانوا من أقرب الأصدقاء وإسقاط أفكارهم والجرأة فى تصور الفكرة وتبنيها .

٧ – التوتر والاستعداد للتعبير عن حياته الانفعالية ، بل لا يملك إلا أن يعبر عنها ، ومعاناة القلق إزاء كل ما يحد من الانطلاق على سجيته . ولهذا يضيق بالقيود وبالمناخ غير الحافز وغير المواتى للانطلاق بفكره وعمله . ويكون نزاعًا إلى الحرية والتحرر فى

إعادة صوغ خبراته ،وله اهتمامات فكرية وجمالية تزيد عن المألوف .

٨ – الاستعداد لأن يكون له أسلوب إدراك جديد تلقائى شبيه بالأطفال كأن كل شىء يبدو له جديدًا مبهجًا لافتًا للنظر ، ولهذا يتجاوز أو يضيق بالنمطية عند النظر إلى الواقع ، راغبًا فى أن يولد من جديد كل يوم .

٩ – الميل إلى الدعابة والفكاهة والظرف .والملاحظ أن الأطفال الذين يغلب عليهم الميل إلى « سلوك اللعب » يكشفون عن مرونة ، وأصالة أكثر ،ولديهم حصيلة أكبر من الأفكار المتنوعة لا النمطية .

الإبداع والفانتازيا :

تعددت النظريات والآراء التى عنيت بتفسير الفانتازيا فى ضوء النتائج التى تتحقق على أساسها ؛ وإن اتجهت جميعها إلى أن الفانتازيا قوة أو قدرة أو وظيفة تعطى شيئًا جديدًا تمامًا أى صورًا وأفكارًا جديدة .. إلخ . وهناك مدارس تحاول تفسير الفانتازيا من زاوية الأهداف : القدرة على تجسيد ما ليس موجودًا ، بل وربما ما لا يمكن أن يكون موجودًا .. أو القدرة على تصوير أو تمثيل شىء وكأنه موجود على الرغم من غيابه .

ويرى البعض أن الفانتازيا نشاط نفسى يخلق ما لا وجود له

ومن ثم يكون معارضًا للواقع وهذا تعريف يتسق مع المفهوم القديم القائل إن الفانتازيا تهويم وتحليق بالخيال بعيدًا عن الواقع فى عالم الأحلام والرؤى ، وبناء تصورات فى الخيال من نسج الأوهام . ولاتزال هذه الصورة قائمة حتى الآن لدى البعض حيث يقول فريزر J. M. Fraser إن الهرب إلى عالم أحلام اليقظة يشبع فينا ما تحرمنا منه حياتنا العادية .أى أن الهدف هو خلق شىء جديد فى علاقات جديدة ونظام جديد مرغوب فيه ويتجاوز الواقع . ونذكر من بين التعريفات « الخيال أو الفانتازيا » حالة من الوعى تشبه المدركات الحسية وإن كانت لا تتطابق مع منبهات فعالة » .

ولكن الصور الخيالية أو الفانتازيا تعتمد على الواقع حيث إننا نستمد معارفنا ومدركاتنا من العالم الموضوعى حولنا .. وتتبدى علاقة منتجات الفانتازيا بالواقع فى النظريات التى ترد هذه العملية إلى المحاكاة سواء محاكاة الواقع الخارجى أم محاكاة محتوى العالم الباطن وما يفيض به من خيالات نابعة من اللاشعور . بيد أن القول بالمحاكاة هو نفى لفكرة الخلق الممكن لشىء جديد أساسًا .

ويرى البعض أن صور الفانتازيا هى إعادة تركيب Recombination لمدركات أو انطباعات . وقد تتم عملية إعادة التركيب على أساس اختيار غير واع ، وإسقاط عناصر وإضافة غيرها ولكنها جميعها لها ما يماثلها فى الواقع .

ومن تعريفات الإبداع التى تربط بين الإبداع والفانتازيا أو حاجة الإبداع إلى الخيال : « الإبداع ربط المدركات الحسية على نحو جديد » ؛ أو « القدرة على إيجاد روابط جديدة والكشف عن علاقات جديدة .. إلخ » أو « الإبانة عن تكوين جديد » أو « الاستعداد للتجديد والاعتراف بالتجديدات » أو « نشاط للعقل ينتج استبصارات جديدة ... أو صوغ الخبرات فى تنظيمات وأبنية جديدة ... أو الإبداع هو نشاط إنسانى هادف موضوعه خلق قيم مادية وروحية جديدة ذات دلالة وأهمية اجتماعية ... ويشتمل الإبداع دائمًا على عناصر جديدة ومثيرة .. والإبداع تفتح كامل للمعرفة والفعل والإرادة .

ويذهب بعض العلماء ، ومنهم جيلفورد Guilford إلى أن المعانى المختلفة لمفهوم الإبداع تشتمل على مفهوم « مشكلة أى وجود مشكلة تمثل عائقًا للحركة وتثير توترًا وحافزًا للتغيير أو البحث عن الحل .تشتمل على مفهوم الميل أو الوضع والنزوع الذى يحدد اتجاه الحركة والمخطط أو الإطار Schema للتفكير ، وكذلك المحاولة والخطأ والاستبصار والنموذج المنشود .

العملية الإبداعية :

فى محاولة للكشف عن القوانين الباطنية للفانتازيا والعملية

الإبداعية أجريت تجارب لدراسة الأنماط المختلفة للنشاط الإنتاجى Productive Activity مثل محاولات حل مشكلات غير قابلة للحل ، وتنظيم الكلمات فى مجموعات ، أو الاختبارات المفتوحة مثل ابتكار أكبر عدد ممكن من الرسوم التى يمكن تشكيلها من دائرة أو من أى شكل أساسى آخر ، أو تكوين جمل مع استخدام كلمات معينة ، أو اختصار نص بعد القراءة .

وأتاحت هذه التجارب إثبات عدد من الوقائع المميزة التى أمكن على هديها وصف وتحديد مفاهيم معينة ، مثل الحل الوهمى Illusory Solution وحذف القسمات المقيِّدة Omission of limiting Features ، وتوسيع العلاقة ، وقلب العلاقة أو تشويشها والتزام جزئى بالعلاقة المرسومة ، وحل توفيقى ، وإيجاد عناصر غريبة فى المجموعات الأساسية والمجموعات الفرعية ؛ وتكوين مجموعات شاذة ... إلخ الإيثار ، وحذف عناصر لحساب التأكيد على عناصر أخرى وغير ذلك من مفاهيم تصف آلية العملية .

وخلصت هذه الدراسات التحليلية إلى أن هذه العمليات ترتكز على مفهومين اثنين للتفسير هى :

التهوين Anoxiomatization

التهويل Hyperaxiomatization

ويشير هذان المفهومان إلى ميكانيزمين باطنيين أساسيين يشكلان محور آلية عملية الفانتازيا الإبداعية . ويتميز الميكانيزم الأول (التهوين) بعدم وجود توجه محدد مسبقًا يقلل من قيمة هذه المعلومات أو تلك أو هذا النمط أو ذاك من أنماط النشاط العقلى ، أى نبدأ عملية الحذف والإسقاط دون نية مسبقة . ويفضى الميكانيزم الثانى إلى تقييم زائد للطريقة الناجحة من وجهة نظر الذات ، فى إنجاز النشاط ، مع تقييم زائد أو مبالغ فيه لهذه المعلومات أو تلك . وتكشف الحالتان عن تحول فى تقييم حقائق نفسية معينة وفى المعلومات الواردة بمعنى أن هذين الميكانيزمين يشملان الإطار النفسى الذى يربط تاريخ الشخصية فى رباط بنيوى نفسى واحد ، والإطار المعرفى أيضًا . وهذان الميكانيزمان متداخلان ومرتبطان بعضهما فى تلازم وثيق بحيث يُقال إنهما تعبير عن قانون عام أكثر عمقًا .

وتشتمل العملية الإبداعية على أربعة مراحل أو أطوار :

١ - طور التهيؤ أو الإعداد ، وقوامها الوعى بوجود مشكلة كما تنطوى على جمع المعلومات ذات الصلة .

٢ - طور الحضانة Incubation وتتضمن فترة انتظار وترقب حيث المشكلة كامنة ولكنها فاعلة فى ذات الوقت أى حية تنضج فيما يوصف بتحت الشعور إلى أن يحدث الإشراق .

٣ – طور الإشراق Illumination أو انبثاق استبصار حل المشكلة .

٤ – طور التحقق Verification حيث تمتلئ جميع الخانات الفارغة وتكتمل الصور بزوال العقبات علاوة على عملية مراجعة .

ومن المتفق عليه أن العقل غير الواعى يقوم بدور هام خلال طور الحضانة وقبل الوصول إلى الاستبصار الإبداعى . ولذا يكون مفيدًا استخدام الوسائل التى تيسر العمليات اللاشعورية بهدف تحرير المرء من عوامل الإعاقة والكف للتفكير الطليق مع الحيلولة دون إصدار أحكام سابقة لأوانها أى التريث وعدم تعجل النتائج . وتفيد هذه الوسائل أيضا فى إطلاق الخيال الخصب الواسع القائم على تفكير منطقى . وتقتضى العملية الإبداعية التخلص بداية من الأفكار الخاطئة ، باعتبار هذا شرطا أوليا لخلق أفكار جديدة ، لأن عملية التخلص لا تأتى تالية كنتيجة للعملية الإبداعية بل هى شرط أولى ومسبق . ويدخل هذا ضمن ميكانيزم التهوين . ويوسع بعض الباحثين من نطاق ما يتعين رفضه بحيث يشتمل على الخبرة الماضية، بل والمباشرة علاوة على التفاصيل التى ليست لها صلة وثيقة ... وفى هذا الصدد يقول أحد العلماء إننا لكى نفى بالمهام المطلوبة يتعين علينا أن نفصل أنفسنا عن الماضى الذى اكتسبنا فيه عادات تلقائية ومعارف ذات صفة مميزة . غير أن محاولة التخلص

من أسر الماضى تفضى إلى حالة معاناة قد تشتد لتسبق حالة المخاض أو ولادة جديدة .

إن المفكر المبدع لابد له وأن يفصل نفسه تمامًا ، أو على نحو شبه تام عن كل ما تفرضه عليه أى وقائع غريبة تحد من انطلاق فكره إلى زوايا متعددة ومتباينة .. تمامًا مثلما يتحرر المرء من أسر استظهار النص ليكون له أسلوبه وفكره وإن أفاد مما سبق تحصيله ..وهذا شبيه بقولنا : إن الثقافة الأصلية ليست ما نحفظه عن ظهر قلب بل ما ترسب فى الذهن بعد القراءة متفاعلاً فى دينامية مع الواقع الجديد .. وهذا هو الدور الإيجابى لعملية رفض المعلومات — أو الموقف النقدى من الخبرة الماضية بعامة .

إن الاهتمام والتجريد والتفكير الهادف ، كل هذا يعنى إسقاط جميع التفاصيل والمعلومات غير وثيقة الصلة بالموضوع المحدد .. ومن هنا تصبح آلية الحذف فى العملية الإبداعية معادلة فى قيمتها لآلية اكتساب الجديد .

التنشئة الاجتماعية والإبداع :

الإبداع نشاط تجديدى محوره الجدة التى قد تكون فكرة أو قيمة جديدة أو منتج جديد ، أو تكنولوجيا أو هيكل تنظيمى جديد .. وينطوى الإبداع على إمكانات مستقبلية هى جماع

التحولات التى يمكن أن تتحقق وفاء بمطلب أو حاجة اجتماعية ، ولكن هذه الإمكانات رهن القدرة على التوائم ثقافيا واجتماعيا وتنظيميا . وقد تكون هذه الإمكانات عناصر تستهدف التحسين ،وقد تكون عناصر أساسية تمثل فتحًا وتحولا جذريا فى مجال النشاط المعنى يعقبه خلق أنماط جديدة من النشاط . ولهذا هناك من يرى التجديد الإبداعى ظاهرة عملية أى أنه ممارسة أو قرين الممارسة ، أو لنقل إن الممارسة هى مجلى الإبداع ، ومن ثم يبدو واضحًا فى المجتمعات التى تتسم بكثافة العمل . وكل إبداع أو تجديد مآله إلى التجسد فى نشاط إنتاجى أو ممارسة عملية .

ونجاح التجديد يعتمد كثيرًا على تاريخه النشوئى التكوينى الثقافى Cultural Genesis، إذ قد ينشأ تأسيسًا على إنجازات ثقافية للشعب أو المجتمع المعنى ... وقد يأتى اقتباسًا من ثقافة مغايرة وهذا التجديد الوافد يكون قبوله أو انتشاره أشد عسرًا ؛ ولكنه فىجميع الأحوال وليد احتكاك ينطوى على تحد بين إطارين ثقافيين . والملاحظ أن المجتمع المجدد مرن فى قبوله واقتباسه للجديد على عكس التقليدى المتزمت .

والعامل الأساسى فى نجاح الإبداعات يتمثل فى نوعية النشاط

الإبداعي للمساهمين فيه مباشرة . وهذا العامل الإنسانى للإبداعات يشتمل على بنية المصالح والاهتمامات والحوافز والدوافع فى مجتمع معين تجاه العمل بعامة ، والنشاط الإبداعى بخاصة . وكذا القابلية للإبداع والتجديد ، وهى قابلية تختلف بوضوح بين الأفراد والتنظيمات والثقافات ، ويشتمل العامل الإنسانى للإبداعات على بنية وهيكل المعارف العامة والخاصة السائدة من حيث منهجها وأطرها ومستواها ، كما يشتمل على مهارات العمل لدى السكان . ويتأثر كذلك ببنية القيم والمعايير التى هى عناصر البنية الثقافية فى المجتمع .

وفى ضوء الحديث عن صفات الشخصية المبدعة يبدو واضحًا أن عوامل التنشئة الاجتماعية ،وأهمها عاملا الثقافة الاجتماعية والتعليم فى المدرسة ، لهما دور محورى لا من أجل خلق القدرة الإبداعية بل العمل على ازدهارها واتساع نطاقها وتعزيز الحافز إليها وإزالة أسباب إعاقتها أو طمسها . ولذلك فإن مشكلة تهيئة الشروط المشجعة والحافزة للقوة الإبداعية اكتسبت أهمية عملية كبرى زادت زيادة حادة مع ظروف عصر ما بعد التصنيع .

ومن العوامل الداعمة للقدرة الإبداعية : الاعتماد على النفس ، والثقة بالنفس والاستقلالية وعدم الاتباعية Non. Conformism وهذه

وليدة عديد من العوامل التربوية، والتعليمية ،لذا عنى الباحثون بتحديد إجراءات وتدابير للتدرب تستهدف غرس قدرات إبداعية لمن لديهم استعداد لذلك .

وبات واضحًا أن توجه الإبداع وطابعه تحددهما مقدمًا عوامل نفسية مثل الحوافز والخصائص الفردية المميزة للشخص .. وأن حوافز السلوك تتشكل وتتطور تحت تأثير ظروف اجتماعية ، مثال ذلك الاتساق أو الامتثال السلوكى Behavioral Conformity الذى له دور سلبى فى الإبداع هو نتاج ظروف تنشئة اجتماعية . ومثل هذا السلوك هو نتيجة أو محصلة كل من خصائص الفرد والعلاقات القائمة بين الأشخاص وخصوصيات الوسط الاجتماعى .

والحديث عن التنشئة الاجتماعية يعنى بيان الظروف والشروط الثقافية والتربوية التعليمية التى يعيش فيها الطفل ومن ثم تؤثر على سلوكه وتحدد اتجاهاته وقيمه فى إطار تنمية أو إحباط القدرات الإبداعية . مثال ذلك الكشف عن طبيعة ودور المناخ الأسرى والاتجاهات الوالدية فى تنشئة الطفل ؛ والقيم الاجتماعية السائدة فى العلاقات الأسرية وأساليب التنشئة هل تعتمد على التقريع والتأنيب أم الإيحاء والتعليم ، وهل تحبذ سلوك الطاعة والانصياع أم حرية التعبير وتنمية الاستقلالية ؟ وما موقفها من المرء طفلاً فى البيت ، وإنسانًا مواطنًا فى المجتمع إذا ما تجرأ وخرج على النمطية

وأتى بجديد غير مألوف ؟ إذ ثمة بيئة تكبت وأخرى تهيئ عوامل الحفز .

والمعروف أن الطفل الذى ينشد الرضى والقبول من أنداده ويرى فى رضاهم علامة الصواب ، ويعطى الأولوية لرضى الناس عنه إنما يفتقد الأصالة . ومثل هذا الطفل هو وليد وسط اجتماعى يعتمد فى التربية أسلوب القسر والتطويع والتسلط ، ويسود هذا الوسط أسلوب القطيع وشمولية الفكر والسلطة ، كما تسود فيه آلية تقمص اتجاه السلطة أو التوحد مع قيم السلطان على نحو يرسخ الازدواجية والنفاق وكلاهما مدمر للقدرة الإبداعية .

وتمثل السلطة هنا المثل الأعلى والقوة المرهوبة الجانب لها الكلمة العليا . وقد تكون هذه السلطة هى تراث الماضى أو الحاكم أو الوالدين ، أو الجميع معًا . وتغرس هذه البيئة روح فقدان الثقة مقرونة بالتعصب ، وتقتل روح المبادأة ، وتقضى على الشعور بالمسئولية وتعزز التواكلية والسطحية ، والضآلة والضحالة ، وتسود معها قيم أخلاقية تحبذ السير مع التيار ،والخوف من الاكتشاف والإبداع والاحتماء بالتقليد ، والابتعاد عن النقد والتجديد ، ثم إيثار الانسحاب إلى داخل التراث حيث لا يعنى المرء سوى ذاته ومشكلاته الآنيَّة .

هذا بينما نشأة المرء فى بيئة متسامحة يساعد على إطلاق الطاقات

الإبداعية الخلاقة ، والجرأة على اكتشاف الحلول الجديدة حتى وإن تمايزت عن المألوف أو ناهضته ، وتحفز على النقد الذى هو بداية التخلص من الأخطاء والثورة عليها والتحول إلى الجديد وتجلى الذاتية فى أصالتها .

ومن الأهمية بمكان عند دراسة العلاقة بين بيئة التنشئة الاجتماعية والإبداع معرفة إلى أى حد تتصف هذه البيئة بثراء المنبهات المتنوعة ، ومدى اتساع نطاق هذه المنبهات على المستويين المحلى والقومى والعالمى بمعنى هل تتسع البيئة وتزخر بمنبهات حضارية محلية وقومية وعالمية على نحو يخلق اتساعًا فى الأفق وخصوبة وتسامحًا فى الرؤية أم أنها بيئة محلية محدودة ومغلقة ، إذ كلما قلت خبرة الطفل وازدادت محدودية وتقييدًا كلما قلت ثقافته وكان لهذا آثاره على رؤيته وديناميه تفكيره والحد من فضوله وحبه للاستطلاع . وثمة شواهد قوية تؤكد أن الأطفال الذين يشبون فى وسط غنى بالمثيرات يتميزون بنمو عقلى أسرع وأكمل من الأطفال الذين يشبون فى وسط مقيد وبيئة فقيرة .

تنمية القدرات الإبداعية :

مشكلة تنمية القدرات الإبداعية مشكلة معقدة للغاية ، ولا يمكن اختزالها إلى بضع تدابير منعزلة .إذ أن تطوير القدرات الإبداعية

لدى المرء أو الإنسان العام منذ الطفولة لا ينفصل عن العملية الشاملة للتنشئة ليكون شخصية متكاملة من جميع الوجوه .

لهذا فإن التربية الاجتماعية والتعليمية التى تستهدف الارتفاع بالقدرات الإبداعية والوصول إلى كمال ازدهارها توصى بأن يخضع الأطفال للمؤثرات التعليمية والتربوية الضرورية لدعم الصفات الإبداعية ضمن إطار تكوين طباعهم وخصائصهم مع بداية تشكل توجههم الحافزى الباطنى . ونجد هنا عددًا من التوصيات لتطوير القدرات الإبداعية فى الطفولة بل وقبل سن الدراسة وكذا فى المراحل التعليمية التالية . ولا يخفى طبعًا ضرورة التوافق والاتساق بينها وبين ظروف الحياة الاجتماعية خارج البيت والمدرسة مثل الحياة السياسية والظروف الاقتصادية .. والثقافة الاجتماعية بعامة وما يقتضيه هذا من تحولات .

وتستهدف هذه التوصيات :

■ تنمية الفضول المعرفى والفكرى لدى الأطفال والتلاميذ حتى تتشكل عقولهم على أساس من الشغف بالمعارف الجديدة واستكشاف المجهول وحل كل ما هو ملغز فى دأب ومثابرة ، وهكذا يمكن أن يألفوا عديدًا من الظواهر والموضوعات المثيرة للحيرة والحافزة للتفكير ولفت الأنظار والاندهاش عن طريق الإثارة وتنشيط الخيال

ومحاولة كشف الأسباب وحدة الملاحظة والاستعداد لتناول المشكلات المعقدة ، والاستمتاع بفرحة الوصول إلى حل وكشف المجهول .

■ تنمية الفكر الاحتمالى إلى جانب الفكر اليقينى بمعنى الابتعاد عن العقائدية الجامدة والأحكام الحتمية القاطعة التى تسد السبيل أمام أى محاولات للبحث الجديد والتغيير . وهذا النهج قرين القدرة على الشك والتحرر من قيد الرؤية القاطعة ؛ وإن كانت بعض الثقافات ترى فى القدرة على الشك والتساؤل عاملاً مثيرًا للاضطراب والتشوش بل مثيرًا للخوف خاصة لدى من تعوزهم المرونة المعرفية والمرونة الاجتماعية وسعة الأفق اللازمة للتسامح . ولهذا فإن البيئة الثقافية التى تتصف بفقر المعارف والتعصب والصرامة – وجميعها عناصر متكاملة – تمثل حاجزًا نفسيا مناهضًا للإبداع .

■ تنمية قدرة الطفل على استبيان المشكلات ، واستيعاب المسائل واكتشافها لا على مجرد البحث عن الحلول لما يعرض عليه منها ، أى المبادأة والنظرة النقدية للواقع والفكر واكتشاف ما ينطوى عليه من مشكلات فيبرزها ، أو تناقضات فيكشفها .

■ الابتعاد عن النمطية . وذلك أن من أخطر العقبات ضد الإبداع النزعات المحافظة فى المجتمع ونمطية ومعيارية أسلوب الحياة ، وغلبة نزعة التشبث بالأعراف والتقاليد Conventionalism

والعداء ضد كل من ينحرف عن خط التفكير السائد ... فإن هذه النزعات المحافظة تؤدى إلى التهوين من قيمة الأفكار الأصيلة والمناهج الجديدة فى حل المشكلات مثلما تؤدى فى ذات الوقت إلى التهويل من قيمة الحقائق التقليدية الراسخة الرسمية .

والنمطية نقيض التجديد والتمايز وهما جوهر الإبداع .والنمطية قرين التسلط الاجتماعى .وتسود النمطية فى المجتمعات التى ترى كبرى الفضائل فى الاتباعية والطاعة والامتثال ومن ثم تنشئ أبناءها على هذا الأساس . وغلبة النمطية تفضى إلى رؤية الحياة تيارًا متجانسًا وتضعف معها القدرة على استكشاف التمايز بين الظواهر بل ورفض هذا التمايز من حيث المبدأ .

لهذا فإن من المهم ضمان تنمية القدرات الفردية لدى الأطفال دون قمع بعض مظاهر الخروج عن المألوف Ecentricity لما لهذا من دلالة عن استعدادهم للإبداع . ومن المهم أيضًا أن نغرس فى نفوس الأطفال الإيمان بأن الشجاعة والجسارة والاستقلال والتمايز وصدق التعبير عن النفس بحرية هى فضائل مستحبة .ويسهم المجتمع فى تجلى هذه الصفات فى مجالات الأنشطة الإنسانية بما فى ذلك الأنشطة العقلية أو الفكرية . وليس معنى هذا أن يتسامح المجتمع مع الخروج عن مظاهر سلوكية عملية بينما يقف موقفًا متزمتًا صارمًا ضد التمايز الفكرى . وتحقيقًا لهذا الهدف

نُربى الأطفال منذ نعومة أظفارهم على أن يعبروا بجرأة عن أحكامهم الأصيلة والناقدة ، ومساعدتهم على إدراك وتفهم أخطائهم والتحقق منها بأنفسهم وليس عن طريق الأمر والنهى ، وألا ينظر الكبار إلى هذه الأخطاء وكأنها شيء مخجل أو غير مقبول ناهيك عن اقتران هذا بالتهديد والوعيد ثم العقاب .

ومن بديهيات الأمور أن الآباء والمعلمين وسلطة المجتمع حين يطالبون المرء طفلاً ثم يافعًا وبالغًا ، بالطاعة الصارمة أو العقاب الرادع إنما يخلقون لديه استعدادًا سلبيًا إزاء الإقدام على أى سلوك جديد أو التعبير عن أى فكرة متمايزة . ويتبدى هذا فى صورة خمول وبلادة وخوف من الأنشطة العقلية أو الخوف من عدم الانحياز إلى فكر وقيم المجتمع . ويصبح هذا النهج قيمة اجتماعية وغالبة إذ يغدو مجموع الناس لهم هذه الصفات وتحكمهم هذه القيم على نحو يدعم النمطية والتواكلية والاتباعية . والذى لاشك فيه أن الأطفال يتصفون بشدة الحساسية لعمليات التقييم لسلوكهم ولأنشطتهم العقلية مما يوجب الحذر الشديد عند إصدار أحكام عليهم ، ذلك أن الطفل حريص على الشعور بالانتماء وتقبل الآخر له ، لذا يكون من المفيد جدًا أن لا نستخدم هذا السلاح لتطويعه وترويضه إلى حد قتل كل قدرة إبداعية لحساب النمطية .

وفى سن الدراسة الثانوية يرى علماء النفس أن المهام الفردية

المحدودة والمحددة مرغوب فيها ، وأنها عمل مستصوب من أجل ضمان التعبير الصادق أى المستقل والأصيل وغير الاتباعى عن العواطف والانفعالات ،أى الصدق مع النفس فى طلاقة .ويتعين كذلك أن نؤكد للأطفال من خلال الأسلوب التربوى أن النهج الإبداعى فى معالجة أى مشكلة سوف يحظى بتقدير كبير من مدرسيهم والمجموعة . ومن ثم يلزم إشاعة وخلق جو أو مناخ إبداعى فى المدرسة ، واتخاذ موقف متعاطف وتشجيعى تجاه محاولات البحث من جانب الأطفال أو التلاميذ والتعبير عن أفكارهم الأصيلة حتى وإن بدا عليهم الحرج أو بدت أفكارهم وجهودهم ضالة ، ومن وجهة نظرنا ، فى أول الأمر ، وحرى بالمعلمين أن يعنوا بمن يكشفون عن تمايز وقدرة إبداعية حتى لا ينطووا على أنفسهم ويتحولوا إلى أشخاص منعزلين أو انعزاليين .

والجدير بالذكر أن النمطية تسود أيضًا فى المجتمعات التى تغلب فيها النزعة التقنية Technicism التى تتمثل فى فيضان الأفلام النمطية الحديثة والمسلسلات الفقيرة فى أحداثها وفعاليتها والبرامج التلفزيونية المتطابقة أو النمطية والإعلانات المتماثلة .. إلخ كذلك فإن من العوامل المعوقة للإبداع غلبة نظام المكننة فى الصناعة والتخصص الرتيب وتقسيم العمل الضيق الذى يتحول إلى روتين

ومهام متكررة . لهذا يحسن الحرص على التنوع وتنويع أسلوب العمل والحياة بما فى ذلك طرق الاستمتاع بوقت الفراغ .

■ ثراء وتنوع النشاط الاجتماعى . ذلك أن النضج الفكرى للفرد من خلال عملية التنشئة يتوقف إلى حد بعيد على الأنشطة التى يشارك فيها ومدى انتمائها الاجتماعى . وعلى هذا ينبغى ابتكار أنشطة راسخة الجذور فى واقع الحياة ، وتحفز الطفل على الاكتشاف الشخصى وتتيح له استكشاف بيئته وتفحصها .

■ البعد عن التدليل أو التعويق . ذلك أن النجاح السهل والصعوبات التى يتعذر التغلب عليها كلاهما يضعف الحافز إلى الإبداع ، لذا من الخطأ إزاحة جميع الصعاب التى يواجهها الطفل بل يجب أن يتعلم كيف يتغلب وحده وفى استقلال ، أو فى تعاون منسق مع فريق عمل ، على كل عقبة تعوق التفكير . ويمكن أن يتعلم الأطفال هذا عن طريق التدريب من خلال اكتشافاتهم أو عن طريق حل المشكلات بأسلوب يهديهم إلى نتائج متباينة عن طريق جمع الوقائع المشاهدة خاصة وأن التلاميذ يكتسبون معارف أكثر من خلال برنامج حل المشكلات ووضع تصوراتهم إزاء مسائل يتعين حلها أى المشكلات المحتمل وقوعها « ماذا

لو حدث كذا وكذا ؟ هذا على عكس النهج التقليدى فى التربية والتعليم .فالتزمت والقسوة مع الطفل يغرسان استجابات وقائية أو دفاعية ، بينما الإفراط فى الرعاية أو التدليل يولد عنده نرجسية ورضى زائف عن النفس . وإذا شب الطفل فى جو من الإهمال فإنه ينمو ولديه مزيد من الاهتمام بالأفكار والأشياء أكثر من اهتمامه بالناس .

■ التصحيح الذاتى والاجتماعى . اتباع برنامج التقييم الذاتى أى تعويد الطفل أن يقيِّم أعماله وإنجازاته ومسار تفكيره ومحاولاته لحل المشكلة – كذلك أن يقارن بين ضروب عديدة للحل التى اهتدى إليها هو أو غيره من المجموعات وبذلك يتعلم خصال التسامح ومفهوم التعددية والتلاقح الثقافى وتصحيح المسار من خلال الاحتكاك الثقافى . ويأتى هذا مصداقًا لما قاله جان بياجيه عن العلاقات بين الأفراد وأثرها التصحيحى على الفانتازيا حين قال « إننا نفرخ دائما عددًا كبيرًا من الأفكار والمفاهيم واليوطوبيات الزائفة والتفسيرات الغامضة والخرافات ... التى تختفى جميعها عند الاتصال بشعب آخر » ولهذا فإن من ينشأ فى بيئة نمطية مغلقة يخشى الاتصال بالثقافات الأخرى ، وينفصل عن الواقع ، ويتعذر عليه تقييم وتصحيح ذاته ويخلط ما بين الغزو الثقافى فى حالة ضعفه وفقدان فاعليته وبين التلاقح الثقافى الذى هو فعالية متبادلة . ولهذا أكد علماء كثيرون على أهمية « التصادم

والاحتكاك بين الآراء » الذى يدعم ويسهم فى ظهور أفكار جديدة .
ويقضى هذا بالاهتمام بتعزيز سلوك المباراة والتنافس والتحدى .

■ طرق ومناهج تعليمية غير تقليدية ، إن التعليم المتخلف عن مواكبة ظواهر الحياة العصرية يئد القدرة الإبداعية إذ يعايش المرء ظواهر تكنولوجية يشعر إزاءها بالدونية والضآلة وعدم الفهم وفقدان القدرة على تغييرها أو تطويرها فيظل تابعًا لها . وإذا ظل التعليم والمجتمع بعيدين عن مواكبة الجديد عالميا ، على المستوى الإنتاجى والفكرى والتقنى ، فإن هذا يكرس التبعية الفكرية ومن ثم يعوق القدرة الإبداعية . لذا يتعين أن تنهض المناهج التعليمية بدارسيها إلى مستوى الجديد العالمى ، وتحفز على فهم وتطوير هذا الجديد على هدى منهج علمى فى التفكير وفى التدريس إذ لا إبداع بدون تفكير علمى .

كذلك فإن التعليم فى بلادنا يغرس قيمة التجانس والتوائم الاجتماعى ويجرم التمايز باعتباره رذيلة .ولعل هذا يبدو واضحًا بصورة صارخة فى تعليم اللغة . إذ الملاحظ أن أسلوب التربية اللغوية يتعارض مع الإبداع ... البلاغة ، واللغة بعامة – فى إطار ثقافتنا الاجتماعية ومناهجنا التعليمية – ترى الإبداع فى حسن الاتباع والتقليد وتحكُّم القديم والاحتكام إليه لبيان الحسن والقبيح . وإن الصعوبة الحقيقية التى تمنع إبداع جديد هى غلبة الأساليب التقليدية فى التفكير والتعبير وتحجرها فى قوالب جامدة تمنع الرؤية

من زوايا مغايرة . ونحن أسرى التعابير البلاغية التقليدية ، ونعرف أن اللغة هى صياغات للفكر وهو ما يعنى إطراد التبعية الفكرية .

ونلحظ كذلك أننا فى طرق تدريس الأطفال نبدأ بالحفظ على حساب الفهم ، نحفظ أولا ونحن صغار ثم نحاول الفهم ونحن كبار وما استعصى علينا فهمه تقول إنه رمز دون محاولة البحث فى طبقات التاريخ واللغة والاستعانة بإنجازات العلوم ، والظن بأن القول الفصل وخاتم الكلام ما قاله الأولون .. وهكذا نكبر وقد تحددت على نحو نمطى أسس السلوك والتكوين العقلى العام .

وظهرت اقتراحات عديدة بشأن تطبيق إجراءات تنظيمية مختلفة تستهدف إذكاء وتنشيط القدرات الإبداعية من أهمها اقتراحات أليكس أوزبورن Alex Osborn عن طريقة ذات شقين :

١ – التفتق أو العصف الذهنى وانبثاق أفكار جديدة إبداعية .

٢ – التداخل والتوليف بين عناصر غير مألوفة .

والمقصود بالتفتق أو العصف الذهنى Brainstorming أنه خلال المناقشة الجماعية لمشكلة إبداعية يكون لكل فرد الحق فى التعبير عن أى حكم يعن له حتى وإن بدا فى ظاهره حكما غير قائم على أساس بل وظاهر البطلان .ويرى أوزبورن أن التفكير الجماعى يحفز « القدرة الترابطية » للمجموعة نظرًا لزيادة المنافسة ، ويسهم

فى التعبير الطليق عن الأفكار .ومن أهم قواعد هذه الطريقة حظر النقد لأى فكرة يُعبر عنها صاحبها ،إذ أن هذا يساعد على إلغاء الحوافز الباطنية التى تعوق « ومضات الفكر والتخمينات الهامة » . ومن هذه المعوقات أيضًا الإفراط فى النقد الذاتى والخوف من أن يسيء الآخرون فهمه أو أن يسخروا منه والإحجام عن الدخول في صراع مع الناس أو مع أفكار وآراء شائعة .

ويجرى هذا التدريب داخل مجموعات تضم حوالى ١٢ شخصًا ذوى خبرات متباينة . وعلى قائد الدورة الامتناع عن ممارسة الضغوط ، ويحظر النقد مهما كان مصدره حتى لا يحول دون مبادرة المشتركين إبداعيًا . وأن يكون المسئول يقظًا للفت الأنظار إلى لب المشكلة حتى لا تغيب عنهم . ويعمد إلى إشاعة مناخ استرخاء وحرية ويثير حماس النقاش . ويتمثل جوهر طريقة التفتق الذهنى فى توليد الأفكار التى يجرى تسجيلها فور الإفصاح عنها كما هى دون تعديل أول الأمر ، ثم يجرى تقييمها بعد ذلك عن طريق آخرين لم يشتركوا فى المرحلة الأولى من الدورة التدريبية .. ويحظر النقد « الوقائى » أو المحافظ انطلاقًا من عقائد راسخة ونمطية .

التداخل والتوليف بين عناصر غير مألوفة Synectics وهى طريقة اقترحها Wiliam Gordon إذ يعتقد جوردون أن العامل الحاسم

جديدة إلى شيء مألوف ويتخذ زاوية مغايرة لما هو شائع ومقبول . ويجرى محاولة غير عادية مع ظواهر وموضوعات معروفة . وتغيير الوسائل العادية والمألوفة للإدراك والاستجابة . وطبيعى أن هذه الطريقة تعتمد على ميكانيزم التهوين Anaxiomatizatim لخفض قيمة المألوف .. والنتيجة الإيجابية لهذه الطريقة تتمثل فى فتح السبل للبحث دون الانحصار داخل إطار مغلق ، ومن ثم خلق ظروف مواتية للتهوين من قيمة الآراء الشائعة والسائدة .

ما سبق إشارة إلى معالم طريق شاق طويل فى سبيل تحديث المجتمع دون تحولات كثيرة شديدة العسر أقرب إلى أن تكون ثورة ثقافية اجتماعية تشمل جميع مناحى الحياة في ضوء عقلية علمية وتحول جذرى في أطر التفكير التى سادت قرونًا ولانزال أسرى لها . ولكن حرى بنا أن ندرك أن الإبداع لم يكن يومًا موضع قبول وترحيب اجتماعى فهذا يناقض نزوع المجتمع إلى المحافظة والثبات . وشهادة التاريخ أن الاكتشافات والأفكار الجديدة أثارت دائمًا وأبدًا جدلاً شديدًا وتعرضت لهجمات عنيفة تحاول أن تنتقد الجديد وتسفه من أمره ، ولكن الجديد ، وعلى ضوء هذا المحك ، يتطور ويثبت جدواه اجتماعيًا ، ويحقق نبوءته أو إمكاناته المستقبلية بالقدرة على تجاوز أزمة المجتمع ويدفع المجتمع إلى مدارج أرقى .

ولكن يمكن القول : إن الإبداع لم يكن مطلوبًا بإلحاح شديد ، ووعى واضح مثلما هو الحال فى عصر الصناعة بعامة ، وفى القرن العشرين بخاصة ، ومع بداية موجة عصر ما بعد التصنيع بصفة أخص وأشد إلحاحًا حيث تجرى وبوعى كامل تعبئة القوى لهذا الغرض . وذلك بعد أن ارتبط الإبداع بالسياسة وهو ما يعنى أن الإبداع الذى يعادل التقدم العلمى والتقنى وامتلاك أسباب القوة والتفوق ، بات هو ضمان البقاء والسيادة – وليس غريبًا ، تحول العلم ، ولهذا السبب تحديدًا ، وطبيعة التحولات العلمية والتكنولوجية ، إلى مؤسسة اجتماعية سيادية ترصد له الدولة ، فى سباق محموم مع غيرها ، أقصى طاقاتها لحفز الإبداع ضمانًا لاطراد التحديث وبلوغ ذروة القوة والآمان فى الاقتصاد والسياسة والخبرة والفكر وامتلاك القدرة على صنع المصير .

المراجع

Gearge A miller,

Psychology:

The science of mental life.

A pelican Book, 1967

Guilford J.P.

The Nature of Creativity.

Frontiers in Psych. 1964

Brian M. Foss ed.,

New Horizons in Psych.

A pelican Book 1969

Roset i.,

The Psych. of Phantasy.

Progress Publishers, Moscow. 1977

التفكير العلمى والتنشئة الاجتماعية

لماذا التفكير العلمى ؟

قال أرشميدس « أعطنى رافعة وأنا أحرك العالم » .

والرافعة هنا رمز الإنجاز العلمى ، والاستعانة بهذا الإنجاز العلمى لدفع العالم إلى الأمام والتقدم به ، وبعده قال فرنسيس بيكون ، رائد الحركة العلمية الحديثة :

« إن التعليم سبيل الإنسانية لتحسين معيشتها » ومهد لدعوته إلى العلم والتعليم برفضه للفكر التقليدى الذى جثم على عقول الناس ، وعشش فى رءوس المفكرين قرابة ألفى عام ، وجعل من أرسطو مصدرًا للحكمة ، ومن الكتاب المقدس مصدرًا للمعرفة . وأكد فرنسيس بيكون ما أكدته التجربة من بعد ، أن سيادة الإنسان على الطبيعة رهن بالمعرفة .وأوضح أن الطبيعة لا نقهرها ، بل نطيع قوانينها ، التى نسعى إلى اكتشافها ،وبذا تخضع لسلطاننا العلمى ، ونسخرها لغاياتنا .

ونحن اليوم نعيش حقبة دينامية فذة من التحول الاجتماعى العميق والتطور المستمر للعملية الثورية العالمية ، غيرت صورة العالم . والثورة فى العلم وتطبيق إنجازاته (الثورة التكنولوجية)

أدت إلى تحولات عميقة فى مجالات الحياة والإنتاج والإدراك والاستمتاع والتعامل وشعور الإنسان بذاته وبقدراته ... إلخ وفى سلطة الدولة والشعور بدور الفرد الذى تضاءل بينما تعاظم دور التكتل الجمعى ودور الفكر ، وبات الإنسان مهيأ لطفرة كيفية فى التطور الفكرى والقدرات العقلية .

وأصبح العلم وإنجازاته التى تجد سبيلها إلى التطبيق فورًا ، قوة حاسمة فى تغيير المجتمع والإنسان فكرًا ومزاجًا وتطلعًا ، لم يعد بالإمكان تصور عالم بدون طائرة نفاثة أو تليفزيون أو سفينة فضاء أو كمبيوتر أو بلاستيك أو كيماويات أو مضادات حيوية أو تصنيع آلى ضخم أو ميكنة فى أواخر القرن العشرين الذى يوشك أن يولى .. ترى ماذا عن القرن القادم ؟ وأين نحن من القرن الحالى ناهيك عن القادم ؟لو سألنا أنفسنا ما هو الفرق الأساسى بين صورة العالم والحياة اليوم وبينهما من ٣٠ سنة فقط لوجدنا فارقا مهولا بين عالمين وحياتين . العلم والتكنولوجيا هما مفتاح الثراء المادى والنفسى ورفاهة المجتمع . وأولى بنا ألا ننظر إليهما نظرة غيبية أسطورية ، وألا نتصور أن بالإمكان الإفادة بأحدهما دون الآخر ، ووجود أحدهما دون الآخر خطر على المجتمع فالعلم بدون تكنولوجيا يعنى فقدان العلم لوظيفته ، ويعنى عزل العلم عن المجتمع ، ثم يعنى أخيرا استثمار العلم المعزول اجتماعيا

لصالح أصحاب النفوذ والسلطان . والتكنولوجيا ، وهى العلم مطبقا فى الواقع ، تعنى بدون علم استيراد إنجازات العلم من الخارج . وتصبح نبتا أجنبيا له أخطاره ، وتعنى أن المستفيد بها ، والمتلقى لها ، إنما يشكل عنصرا متخلفًا يعيش عالة على الإنجاز العلمى للغير ... العلم والتكنولوجيا لا يزدهران إلا مع عقل حر متحرر من كل قيود الإحباط والقمع والتحريم ، وهو ما لا يتأتى إلا فى مجتمع يكفل كل هذه الشروط ، أى أن يكون نبتا فى تربة حرة .

إن النظرة إلى العلم وإلى وظيفته تحددهما طبيعة النظام الاجتماعى ، والقيم السائدة فيه .وقد يستهدف النشاط العلمى ، أو قد تفرض عليه طبيعة النظام الاجتماعى ، خدمة مصالح فئات اجتماعية بعينها ، فينحرف عن وظيفته وهى اكتشاف الحقيقة ورفاهة البشرية . وتيسيرًا لبلوغ هذا الهدف تؤكد السلطات المستفيدة على أن للعلم وسائل تقنية خاصة ومتميزة فتعمد إلى تأكيد الفصل بين كل عالم وآخر ، وإلى عزل العلم فى مجموعه عن المجتمع ليصبح نشاطًا علويا مبتورًا عن ثقافة المجتمع ، وتسخره لخدمة أهدافها الخاصة .وتعمل هذه القوى على عزل العلم عن الوعى العام ، أو تحول التفكير العلمى إلى خانات معزولة عن بعضها ، فتسقط النظرة الشاملة ، كما تعزل المدلول الاجتماعى والثقافى

للمعارف العلمية . وليس غريبًا أن نجد هذه الاتجاهات هى السائدة دائمًا فى عصور التخلف ، ويدعو لها فى حماسة وغيرة دعاة الردة والجمود . وتنطوى القيم السائدة فى المجتمع المتخلف على إهدار لقيمة العلم والتفكير العلمى ، وغيبة النظرة العلمية ، أى تجعل من العلم قيمة فى ذاتها فارغة من أى مدلول اجتماعى ، ويصبح العالم مجرد حرفى داخل معمله أو فى قاعة بحثه ، ولكنه عاجز عن أى تأثير اجتماعى .

وإن أشد الاتجاهات ضررًا على المجتمع ورفاهته ، وعلى تطور الإنسان والارتقاء به فكرًا ووجدانًا محاولات عزل العلم عن الوعى العام وإفراغ العلم من مضمونه الاجتماعى ، والفصل بين العلم وبين فهم قوانين المجتمع وحركته . ومثل هذه الاتجاهات ، التى تنزع إليها القوى المحافظة أو المستبدة ،ضارة بالإنسان وبالمجتمع وبالعلم على السواء . إن الوعى العام بقيمة العلم والحاجة إليه وضرورته تشكل حافزًا وقوة دافعة للارتقاء بالعلم ، وصونًا له من عبث العابثين والمحرفين ، وما لم يحط الناس علمًا بما يقوم به العلماء فإنهم لن يقدموا العون ، كمجتمع وكأفراد ، الذى يتطلبه عمل العلماء مقابل ما يعود على الإنسانية من نفع وفائدة . وإن غياب الفهم العام لدى الناس للتفكير العلمى وانجازات العلم ومعايشتها معايشة واعية ومن ثم غياب اهتمامهم ونقدهم ، كل

هذا يدعم نزعة العزلة الذهنية لدى العالم وإدراكه لدوره الاجتماعى ، وهو أمر خطير إذ يدفع به إلى طريق الحرفية المهنية الخالصة الضيقة ، والانفصال عن أمانى المجتمع وعن الوعى بطريقة تقدمه ويصبح فريسة سهلة للقوى المهيمنة أيا كان اتجاهها . وواقع الأمر أن هذه القوى لا تستهدف بذلك عزل العالم ذاته وإنما عزل العلم أو عزل التفكير العلمى عن المجتمع ويعيش العالم حياته العادية حرفيا ، ولكن علمه يمسى أشبه بدكان أو حانوت يختص به نفسه دون الآخرين .

ويرتبط بهذا الاتجاه أيضا اتجاه آخر يصور العلم وكأنه يقسم إلى شعب وخانات وأدراج تفصلها عن بعضها جدران صماء ، وأنه مقطوع الصلة بكل أوجه الثقافة . ويجرى تعليم العلم وكأن من يتعلمونه سوف يستخدمونه لهدف آخر فى حياتهم المقبلة ، وربما يكون الارتزاق على أحسن الفروض ، ومن ثم يكون مجرد تكنيك قاصر على التدريب العلمى . ولذلك ليس غريبًا أن يتخرج كثيرون من الجامعات ممن تدربوا على تطبيقات علمية ثم يعملون فى أعمال روتينية وخدمات حكومية ومكتبية ، وحين تركز التربية العلمية والتقليد على التقنيات من خلال التخصص الضيق ونبذ أى رابطة عضوية بين العلم والمجتمع ، كل هذا يجعل

العلم فى نظر المشتغلين به والناس وكأنه مذهب ضيق قاصر على مجرد إشباع الحاجات البشرية العامة . ويتحول العلم والعلماء إلى مؤسسة متميزة ذات مصالح خاصة . وحين يصبح شيئًا ما مؤسسة ذات مصالح خاصة يصبح سهلاً خضوعها وانقيادها لصاحب النفوذ والسلطان صونا لمصالحهـا الذاتية . وهكذا يفقـد التفكير العلمى وظيفته هاديًا ومرشدًا للإنسان والمجتمع لمواجهة تحديات المجهول أو مشكلات العصر ، وحين يفتقد المرء أو المجتمع التفسير العلمى لمشكلاته يصبح فريسة سهلة لكل قوى التأثير والنفوذ الدعائية والإعلامية المغرضة ، ويرتد بفكره إلى تفسيرات ساذجة بسيطة موروثة وتقليدية يستنيم لها ويجد فيها راحة بلهاء وتفلت من بين يديه الحياة ويزداد تخلفا .

غرس التفكير العلمى ضرورة ديمقراطية وحضارية :

لقد بات فهم العلم أمرًا ضروريًا تتزايد أهميته فى الحياة المعاصرة . وأصبحت نهضة الأمم تقاس بقدر ما تملك من علماء وعقول مبدعة ، وبقدر ما تنفق على العلم ، وبقدر ما تفيد من إنجازات العلم لخير الكافة . ولن يتسنى لمجتمع ما أن يبقى على قيد الحياة ، كقوة حضارية فاعلة ،ما لم يمتلك ناصية العلم ويفهمه ويوظفه . وفهم العلم ، وامتلاك ناصيته لا يعنى توفر العلماء فحسب بل

يعنى أيضا شيوع المعـــارف العلمية ، وذيوع النظرة العلمية ، ليكون المجتمع سندًا للحركة العلمية ودافعًا لها ، والمستفيد الأول منها .

وإذا كان العلم لا ينبت إلا فى تربة حرة ، فإن الديمقراطية ما لم تسترشد بالعلم وتفيد به لن يقدر لها البقاء فليس العلم ترفًا ، بل جزءًا أساسيا من النسيج الاجتماعى ، إنه الجهد الواعى من أجل صوغ إطار النشاط الاجتماعى ، والإفادة بالمعارف البشرية والوسائل التقنية ابتغاء رفاهية الإنسانية . ونذكر بهذه المناسبة ما قاله بروفيسور ماكسى بورن Max Born وهو من أعظم الباحثين العلميين . قال ردا على سؤال : « لماذا خضع العلماء الألمان بسهولة للأفكار الشمولية المتسلطة والاستبدادية ... أجاب : « ليس السبب إخفاقًا فى التعليم العلمى ، بل نقصاً فى التراث الديمقراطى ، وافتقارًا إلى التدرب على الفضائل المدنية . إن الفصل بين الاهتمامات الفكرية وعزل كل منها فى مقصورة صماء محكمة الإغلاق كان الظاهرة الخطيرة لدى العلماء الألمان . وعزل العلم عن دلالته الاجتماعية ، وفصل المعمل عن المجتمع ، كل هذا يؤدى إلى أن يفقد العالم ثقته بنفسه خارج نطاق عمله ، وإلى التخلى عن مسئوليته خارج معمله ، ويعهد بهذه المسئولية إلى

السلطات أو « الفوهرر »[١] . وهو نفس السؤال الذى يمكن أن نسأله لأنفسنا : لماذا يقف العلماء بمنأى عن الحركة الاجتماعية ؟ ولماذا لا يشكل العلم قوة دفع وتغيير فى بلدنا ؟ولماذا يخرج لنا التعليم المدرسى والجامعى حفظة لا يفيدون من العلم فى حياتهم ، ويجهلون الصلة بين علمهم والعلوم الأخرى ؛ وبين هذه العلوم والمجتمع ؟ وإذا أجادوا الحفظ والاستظهار أسلموا أنفسهم إلى خنادق البحث وعاشوا مثل نباتات البيوت الزجاجية .

لهذا فإن الديمقراطية لابد وأن تكون مناخًا اجتماعيا ، ونسيجًا شاملاً ومزاجا عاما ؛ أى مجتمعا ديمقراطيا استجابة لحركة تطور اجتماعى تاريخى شامل وليست مجرد سلوك سياسى فحسب كما يظن البعض فلن تبقى الديمقراطية ، أو قل ، إنها ستفقد فعاليتها ، وتصبح اسمًا على غير مسمى ، أو زخرفًا « ديكورًا » إذا ما سمح بترديد اسمها على الألسن ، دون أن يهتم المؤمنون بها بالقضايا الخارجة عن حدود تخصصهم الضيق . ولن يكون المرء ، عالمًا أو باحثا .. إلخ ، لن يكون ديمقراطيا ما لم يتجاوز نطاق تخصصه المحدود ويعنى بفهم الأبعاد الاجتماعية لموضوع بحثه

---

(١) J-G Crowthor & O-J Howorth: Science and world order - Penguin books, 1942.

وتخصصه . ذلك لأن التخلى عن المسئولية للآخرين ، دون أن يكون للمرء حق السؤال والتفسير والنقد هو ، فى جوهره سلوك شمولى تسلطى ... فالديمقراطية فىأبسط معانيها هى ممارسة المسئولية .

وعزل العلم عن الوعى العام ضار بالعلم . إن غياب الفهم العام لدور العلم وإنجازاته ودلالاته الاجتماعية يدعم نزعة العزلة الذهنية لدى العالم ، وهو أمر جد خطير .. والعزلة هنا هى عزلة للعلم ، لأن المطلوب عند نظم البطش والتخلف والمحافظة والتقليد عزل العلم عن الناس ،لأنهم سنده وظهيره ، وأصحاب المصلحة فيه حتى تتيسر لهم نظرة علمية ، وهو القوة الدافعة لهم نحو الأفضل . والمطلوب عندهم أيضًا أن يكون العالم أعزلا لا يملك رؤية عن طبيعة دوره الاجتماعى . وحين تتحقق عزلة العلم والعالم يسقط عن المجتمع سلاحه المتمثل فى رؤية علمية شاملة متكاملة ومتحدة مع ثقافته ومنصهرة معه فى نسيج واحد متميز . ومن ثم يفقد قدرته على التعليل والتغيير والنمو الدينامى المطرد ، ويضحى العلم ترفا ، وليس جزءا من نسيج النشاط الاجتماعى وليس جهدًا واعيًا لمبناء الحياة . ويرتد العالم فى عزلته ، ناهيك عن الناس ، إلى نظرات أسطورية وفلسفات

ميتافيزيقية مقطوعة الصلة بواقع الحياة . وليس غريبا أن نجد العالم فى المجتمعات التى تعزل العلم عمدًا عن المجتمع ، يعمل داخل معمله عملاً تقنيا خالصا ويرى أن علمه علم بحت . وإذا خرج إلى الحياة عاش مثل العامة وقد غلبت عليه نظرة خرافية أو تواكلية أو قدرية إزاء بحثه لمشكلات الحياة .

وصمام الأمان لضمان قوة الدفع للحركة الاجتماعية يتمثل فى انتشار المعارف العلمية لا كمعارف متناثرة ، بل كمنهج ورؤية متكاملة تستوعب إنجازات العلم وثقافة المجتمع فى كل واحد ونظرة عامة ؛ ثم أن تكون المعرفة العلمية حسا وذوقًا ومزاجًا .. أقول إن انتشار المعارف العلمية فى ضوء هذا التصور شرط فى عالمنا لحديث لبقاء الحضارة بمدلولها الديمقراطى ؛ ومن ثم شرط لحركة المجتمع نحو الأفضل ، وشرط لإنسانية الإنسان . ولهذا لم يكن غريبًا أن تبدأ حركة النهضة فى أوروبا بحركة الموسوعيين الذين عمدوا إلى نشر خلاصة المعارف الحديثة المتاحة فى صورة موسوعات أو دوائر معارف شاملة . وكانت أعمالهم بحق شرارة انطلقت معها المعرفة ، وتحرر العقل فى إطار تغير اجتماعى شامل وعلى أرضية جديدة هى أرضية الليبرالية التى تدعم هذا التغير وتحفزه . ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى والأخيرة ، بل كانت

كما قلنا شرارة تتابعت على إثرها حركات نشر المعارف وتنسيقها فى إطار شامل . ولم يكن غريبًا ثانيًا أن تبدأ حركة النهضة المصرية ، فكرًا ومضمونًا وهدفًا وتاريخًا واستشرافًا للمستقبل على يد الرائد الموسوعى رفاعة الطهطاوى ،الذى استوعب روح العصر ورصد جهده وحياته لنشر المعارف العلمية الحديثة فى عصره ولتأكيد روح التفكير العلمى ، ولتطوير التعليم فى هذا الاتجاه ، فكانت جهوده الفذة شرارة أطلقت حركة التنوير فى مصر وأفاضت بإشعاعاتها على العالم العربى .

التفكير العلمى حرية وإبداع ورؤية شاملة :

نعود لنؤكد أن مناط الأمر ليس حشو الأذهان بالعديد من المعارف ؛ وإلا فلن تفيد المعارف شيئًا ، ولن تثمر ثمارًا نافعة . بل المقصود من نشر المعارف توفير إطار نسقى لمعارف متكاملة تساعد على توفر نظرة شاملة إلى الحياة والإنسان والمجتمع والكون ، وتحديد أهداف للإنسان ؛ ثم بعد ذلك تدعم فى إطار من الديمقراطية الاجتماعية أو المسئولية الاجتماعية ، فرص الابتكار والاكتشاف والإبداع . إن الإبداع هو رائد الحركة الاجتماعية المتقدمة ، وعلامة الحياة النابضة ، وبدونه تكون الحياة مواتًا أو ركودا ، ويكون الفكر تحجرًا وجمودا ، أو لا حياة ولا فكر .

والإبداع العلمى والتكنولوجى يفضى إلى مزيد من الثراء المطرد للمجتمع بشرط تجسده ماديا فى صورة إنجازات تحقق الرفاهة للإنسان .

وثمة من يرى أن مستقبل المجتمع كله رهن بالاكتشافات والتجديدات الإبداعية . ليكن شعارنا « لنعلم أبناءنا الإبداع » ، أو لنعلمهم كيف يكونون مبدعين وبذلك نعلمهم فن الحياة لأن الحياة فى جوهرها خلق وتجدد وحركة مطردة نامية . والإبداع قدرة مكتسبة إلى حد كبير ، إنه ليس هبة ميتافيزيقية .قد يكون الذكاء فى أساسه رهنا بعوامل وراثية وخلقية وولادية ، ثم بعد ذلك تدعمه عوامل مكتسبة ؛ أما الإبداع فإنه غير الذكاء ، إنه ملكة مغايرة إضافية ،مضافة إلى الذكاء ، متعددة المستويات بدءا من الإبداع التعبيرى الذى يتميز بتلقائية التعبير عند الطفل فى بدء حياته ثم قد تأده وتخنقه عوامل الإحباط والقيود الاجتماعية . وتسمو إلى ما يسمى الإبداع الطارئ Emergentive Creativity حيث يتم اكتشاف مبدأ جديد أو فرض علمى جديد على أعلى مستوى من التجريد ، وينقل ميدان العلم أو الفن إلى مستوى مغاير وجديد جذريا أى إلى مرحلة أرقى .

وإذا شئنا أن نعلم أبناءنا الإبداع فأحرى بنا أن نعرف أن الإنسان المبدع ، أو الطفل المبدع ، له سمات سلوكية متميزة يسرتها له البيئة ، وعودته عليها أو لقنته إياها ، وأهمها التسامح

والقدرة على تخطى حواجز الواقع ، ورفض القيود ، وتحرر الفكر . والإبداع فى جوهره تجاوز للواقع ، وتعال عليه ، وإسقاط لسطوة التقليد والتقديس ورفض لسلطان الامتثال أو التماثل الاجتماعى . إنه تمرد عقلانى مخطط هادف . والإبداع لا يكون إلا بإطلاق حدود الخيال ، وصوغ واختبار الفروض ، ونفى لكل عوامل كبت الخيال والحد منها وهى فى أغلبها عوامل تقليدية واقتصادية يعبر عنها نظام سياسى ؛ ولهذا فإن الإبداع لا ينشأ ، أو لا يمكن أن ننميه ونربيه إلا فى مجتمع يسوده مناخ ديمقراطى بالمعنى الذى أسلفناه حين قلنا إن الديمقراطية تعنى ممارسة المسئولية . وأول شروط ممارسة المسئولية استقلال الذات ، واحترام هذا الاستقلال على الصعيد الاجتماعى . وقد لوحظ أن الإبداع يزدهر فى المجتمعات الديمقراطية والتى يحتل العلم والتعليم فيها مكانة سامية قدسية .ويبلغ أدنى مستوى له ، بل يكاد ينعدم ، فى مجتمعات القهر والتسلط .

التفكير العلمى منهج ونشاط وتربية :

وهنا نصل بعد الديمقراطية إلى العامل الثانى لتنمية الإبداع وهو العلم والتعليم . والعلم ليس مجرد نثار من المعارف الصحيحة ، بل مناخ ومنهج أولاً وأساسًا .إن المدرسة وحدها لا تخلق عالما مبدعا . والبيت وحده لا يخلق عالما مبدعا . بل طبيعة المناخ العام

السائد فى المجتمع هو الأساس والذى يشكل البيت والمدرسة امتدادًا له وتعبيرًا عنه . ولهذا ينبغى أن نولى تدريس المنهج العلمى اهتمامًا كبيرًا ، وأن نكفل سيادة مناخ التفكير العلمى ، وأن ندرب الإنسان منذ الطفولة فى البيت وفى المدرسة وفى النوادى ومجالات اللعب على التجريب والاكتشاف . وأن تكون برامج التعليم فى المدارس أداة لغرس المزاج العلمى والمنهج العلمى أو ما يمكن أن نسميه تقنية الأسلوب العلمى فى تناول الظواهر وتفسيرها وتأكيد معنى التفكير العلمى الملتزم . وأن نعمل على تأصيل القيم العلمية وصورة البطل العلمى الذى يسعى المرء إلى الاقتداء به وذلك من خلال بيان عائد الاكتشاف العلمى وثمرة الإبداع متمثلاً فى قدرة الإنسان على التغيير وما يمكن أن نسميه فرحة الإبداع والابتكار وطفرة المجتمع فى حركته إلى الأمام . وأن يكون كذلك من خلال ما نقدمه متمثلاً فى قصص حيوات علماء ناجحين أثروا فى تقدم البشرية على مدى التاريخ وبيان آثار ذلك فى حياتهم فى ضوء أمثلة ملموسة فى مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية ..إلخ .

وحرى بنا أن نعمل مع هذا على تنمية حب الاستطلاع منذ الصغر بأن نهيئ الفرصة للطفل للبحث من أجل فهم كيف تعمل الأشياء ابتداء من اللعبة التى بين يديه ، وأن ندربه على التعلم من

خلال التجربة ، وأن التجربة معيار الصدق ، والحواس سبيله لمعرفة صادقة وليست أوامر الأبوين أو المشرفين عليه ، وليست التعليمات الصادرة إليه من خارج ذاته فى صورة أوامر أو نواه أو تعاليم موروثة . وندربه على أسلوب التحقق وعلى التمييز بين التجريبى واللفظى والعناية بالربط بين الذهنى واليدوى ؛ بين المعرفة والتطبيق من خلال اللعب ومن خلال المعامل والورش . إن واقع الأمور فى بلادنا ، وهو السائد فى كل البلدان المتخلفة ، أن تمتلئ الرءوس على أحسن الفروض ، بالحشو من المعلومات دون تدرب على إدراك أبسط مبادئ المنهج العلمى . فالطالب قد يتخرج فى الجامعة ، ولا أقول الإنسان العام ، وهو غير متمرس على إدراك معنى العليّة أو تلازم العلة والمعلول ، وأن لكل حدث سببًا وأن لا محل ليقين مطلق . ونظرة واحدة إلى سلوك الكثيرين ممن تلقوا حظًّا وافرًا من « التعليم » نجدهم يطبقون فى سلوكهم العام أسطورة الحسد ، إنه لا يلتزم فى سلوكه بمحصلات علمه ، بل يلتزم بالموروث من أساطير وخرافات ويسوقها على أنها حقائق يقينية ، فالعلم شيء وواقع حياته شيء آخر ، وإذا ألم به مكروه ، كأن مرض له عزيز أو أصابته كارثة فإنه يعلل ذلك ويرجعه إلى عين حاسدة رصدته ، أو سوء الطالع ، فليس المرض سببه ميكروب ،

على الرغم من شيوع هذه المعلومة ، وإنما سببه أسطورى غامض . وقلة الرزق ، أو سعته ، مسألة حظ دون إدراك للأسباب الاجتماعية أو النفسية ، ولا علاقة عنده بين سعة الرزق أو ضيقه وبين الجهد المبذول أو طبيعة النظام الاجتماعى مثلاً ، وذلك لأن التعليم والعلم شيء وثقافة المجتمع شيء آخر .العلم والتعليم أقرب إلى المجردات التى لا تصوغ فكرًا ولا تهدى سلوكًا .

التفكير العلمى وإبداع المنتمى :

نصل بعد ذلك إلى نقطة هامة تتعلق بالعلم والتفكير العلمى وإبداع الإنسان المنتمى .إن الإنسان لا يبدع للاشيء .فالإبداع ليس إفرازًا طبيعيا لا إراديا ، وليس شيئًا أشبه بالنتح فى النبات . الإبداع ، بالإضافة إلى ما أسلفنا ، وظيفة وأداة ونتاج . إن الإنسان لا يمكن أن يبدع ما لم تتوفر له رؤية حياتية مستقبلية يسعى إلى تحقيقها ، ويتأكد لديه شعور بالانتماء الاجتماعى . فبعد أن تتوفر له الشروط التربوية والتعليمية والاجتماعية التى تؤهله للإبداع قدر المستطاع ، ستصبح هذه الشروط غير ذات موضوع ، أو ستصبح شروطًا عقيمة غير مخصبة ما لم تتوفر للإنسان المبدع رؤية اجتماعية : لماذا يبدع وفيما يفيد إبداعه وكيف يخدم حياة الإنسان والمجتمع ، وأى إنسان وأى مجتمع يستهدفه ؟ معنى هذا أن الإنسان المبدع لن تكتمل مقومات إبداعه كقوة حافزة للتقدم

الإنسانى والاجتماعى ما لم تتوفر له هذه الرؤية المتكاملة ، ويتوفر له أيضا وعى بذاته كعنصر اجتماعى تاريخى ، أى كفرد له انتماؤه إلى مجتمع محدد له مشكلاته وتناقضاته وطموحاته وتطلعاته ، وله تاريخ وحضارة يعى عناصرهما ، ويدرك ما فيهما من سلبيات وإيجابيات حتى يكون إبداعه حلقة ضمن سلسلة تاريخية لحركة التقدم الإنسانى والاجتماعى . ولهذا لن نجد أمة غنية بأبنائها المبدعين إلا أمة تعيش بكل كيانها فى حركة شاملة متقدمة ، واعية بذاتها وتاريخها ، وبأهدافها المستقبلية ، ويؤلف كل هذا ما يمكن أن نسميه الضمير الاجتماعى للإبداع العلمى .وإن عزل الإبداع العلمى عن مدلوله الاجتماعى لن ينتج إلا حسكًا وشوكًا .

معنى هذا أن على التعليم الذى يستهدف خلق مبدعين أن يعنى بشرط أساسى لتوفير الوعى بالذات ، ألا وهو الوعى بالتاريخ الحضارى والثقافى للمجتمع ، وأن يكون وعيا متحررا من كل مظاهر الانحياز . وأن يكون التاريخ كشفًا لمسار حضارة يصنعها الإنسان لا الفرد ، المجتمع لا السلطة ، بكل ما فيها من عثرات وطفرات ، وتجانس وتناقضات . وإن نظرة عاجلة إلى برامج التعليم فى مصر مثلاً سنلحظ معها إغفالا تاما لشعور ، أو لتربية شعور ، الانتماء التاريخى إلى حضارة ممتدة على مدى أكثر من سبعة آلاف سنة . وليس غريبًا ما شاهده جيل واحد

تقريبًا حين رأى تدريس التاريخ المعاصر يبدأ حينا مع ٢٣ يوليو/ وحينًا مع ١٥ مايو ، وحينًا يبدأ تاريخ مصر مع دخول العرب مصر ، وحينًا نذكر على نحو عابر حضارة الأقدمين ويأتى ذكرهم مشفوعًا بصفات الكفر على نحو يقطع أوصال الانتماء .. وفى كل هذا وذاك يكون التاريخ رواية لسير الرؤساء والحكام مما يدعم نزوع الولاء لمذهب بذاته أو لحاكم بعينه وإغفال تام لما انطوى عليه من تناقضات واحتمالات . فالتاريخ دائما ظاهرة لمن غلب وقد توارت الحقيقة أو الحدث وراء نسيج صنعته الأسطورة ، والتاريخ العام شيء وتاريخ العلوم والحضارات شيء آخر ؛ أى أننا نفصل بين الحضارة وثقافتنا وبين واقع الحركة التاريخية . ومن ثم تخفق هذه المناهج فى تحقيق هدف أسمى إذ لا تغرس الانتماء التاريخى بكل أبعاده ، وعلى نحو متحرر من مظاهر التميز العقلانى والعقائدى . ونجد مع هذا كله إغفالا لزيارة المتاحف ،وافتقارًا لكل الأنشطة التى تدعم هذه القيمة ، قيمة الامتداد التاريخى ومعرفة من أنا ؟ معرفة نقدية تتسع لجميع الاحتمالات ولمن أعيش ولماذا ؟ وهو ما يمثل أحد الركائز العلمية للإبداع .

التفكير العلمى إنسانى بطبيعته :

يسود تصور خاطئ لدى البعض بأن العلم عمل تقنى خالص ، وألا تداخل بين فروعه ، وهذا إغفال للجانب الإنسانى يفضى

إلى تدهور العلم ذاته ومن ثم المجتمع .ولا يدعم هذا التصور إلا من يخشون التغيير الاجتماعى ، إذ يسعون جهدهم لإخفاء أو إغفال الجانب الإنسانى للعلم . بينما إذا شئنا أن يكون العلم ، ومن ثم التفكير العلمى ، أداة تغيير وتقدم فلابد وأن تبرز بوضوح إنسانية العلم ، بمعنى أن يفيد العلم فى تفسير التنظيم الاجتماعى والمشكلات العملية والذهنية لحياة الإنسان ورفاهته ومناهج حلها . وأن ندرك بوضوح أن وظيفة العلم هى التغلب على العوائق ، وأن ييسر لنا سبل الانتصار على المشكلات الاجتماعية ، وأنه ديمقراطى لا يخدم فردا أو جماعة دون سائر أبناء المجتمع ، بل يستهدف خدمة ورفاهة الجميع ، وما دون ذلك فهو انحراف بالعلم عن مساره الصحيح .فليس العلم تحصيلاً وتراكما للمعارف ، أو تأملاً مجردًا لغوامض الحياة والكون ، بل أداة اجتماعية للحوار مع أو للصراع ضد الطبيعة وتحسين ظروفها والتوافق معها أيضًا . وهو تجربة يعايشها الإنسان وترتبط بأوضاع حياته . فالعالم له دوره الاجتماعى الإنسانى ، والعالم يتحمل مسئولية اجتماعية ، إذ لا يمكنه أن يظل ، أو ينبغى ألا يظل ، عالما « بحتا » فى الرياضيات أو الفيزياء الحيوية أو الاجتماع أو الفلسفة مثلاً ، ذلك لأنه لا يستطع أن

يبقى محايدًا أو لا مباليا إزاء ثمار جهده العلمى وما قد يحققه من نفع أو يجلبه من ضرر .

لهذا فإن غرس التوجه العلمى فى أذهان الكافة يشكل الأساس الصلب لاهتمام الجماهير بالعلم ليكونوا بدورهم سندًا للعلم ولاستمراره وليكون هذا الاهتمام ذاته هو الأساس الديمقراطى الممكن الوحيد لإدارة المجتمع وتسييره على هدى العلم وإنجازاته لصالح الكافة ، وهو الأساس المكين لحماية المجتمع من أى انحراف .

إننا نخطو خطوة كبيرة إلى الأمام نحو تغيير المجتمع إلى الأفضل إذا نجحنا فى خلق عاطفة نحو العلم من خلال أجهزة التعليم والإعلام ، بحيث تنفعل الناس به وبانتصاراته وتتحمس له حماسة تتعادل ، بل تفوق ، الحماس العام لكرة القدم مثلاً ، والعمل على نشر العلم بين قطاع عريض من الناس وفقًا لمعلومات موضوعية ، ودون تأويلات ذاتية تزعزع الواقع أو تفسد النهج الموضوعى فى تناول الظواهر .فمن خلال المدرسة والعملية التعليمية نغرس عاطفة حب العلم والاستطلاع والاكتشاف فلا تكون العملية التعليمية مجرد عمل ذهنى للاستيعاب أو أداة استظهار لنصوص نحفظها عن ظهر قلب ، وأن يكون العلم هو الحياة المتجددة ، والكون الشامل المتسع ، ومتعة الاستكشاف وتجاوز الواقع ، وتقديس

العقل الوثاب المتحرر دون سواه »، وإدراك المعنى المضمون دون الوقوف عند الشكل أو النص .. وأن يكون تدريبًا للعواطف مثلما هو تدريب للعقل .. فإن حب العلم خير ضمان لخلق الباحث الأصيل المتكامل ، فالعامل العاطفى له أثره الكبير على سلوك الإنسان واهتماماته . ويمكن لوسائل الإعلام أن تدعم هذا الاتجاه وتعزز هذه العاطفة ، وتؤكد المناخ المطلوب من خلال الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والكتاب والمناقشات التى تعرض مظاهر التقدم العلمى وانعكاساته الاجتماعية المستقبلية وتبرز أبطال البحث العلمى ليكونوا قدوة اجتماعية ويكونوا هم نجوم الحياة يهتدى بها من يشاء الهداية ، وتؤكد فضيلة التمرد العقلانى ، ونكون أكبر من أنفسنا وأهوائنا .

إن العلم يذوى فى مجتمع متخلف ، خانق لا حرية فيه ، الكلمة العليا فيه لرب العائلة أو لصاحب السيادة أو لسلف عاش زمانه ولأيهما أو لكليهما القول الفصل ، ولا يجوز للعلم أو للبحث العلمى أن يأتى بما يناقض رأى هذا أو ذاك ويعارض فكرهما ومزاجهما وأن تكون المؤسسات العلمية فى خدمة هذا كله وتعبيرا عنه .

ومثلما أن التقدم ليس تكنولوجيا نحوزها ، فى صورة سيارات

نركبها أو أجهزة فيديو نحدق فيها والرءوس فارغة ، كذلك فإن العلم ليس امتلاك معامل ، ولا مواد ندرسها ، ولا مجرد خطوات بحث منهجي جامدة ، بل العلم بعد هذا كله ، أو قبله إن شئت ، عقلية ، وإطار فكرى معرفى ، ومزاج ومناخ اجتماعى . وهذا ما لا يتأتى بسهولة ، بل دونه جهد ثورى اجتماعى وفردى طويل الأمد . وأول خصائص المزاج العلمى التوجه إلى الطبيعة . والطبيعة هنا هى الوجود فى شموله : طبيعة جامدة أو حية ، مجتمعا أو إنسانا فردا ، فهى كتاب مفتوح صادق العطاء نتعلم منها الصدق ، لذا يكون الباحث صادقًا صدق الطبيعة حين تكشف عن هويتها دون تحيز . والتعامل مع ظواهر الطبيعة ورصد أحداثها يقتضى منا ، أو يدربنا ، على أن يكون الباحث يقظ الذهن ليلمح الإشارات التى تلمح بها الطبيعة . ويقتضى المزاج العلمى شجاعة أدبية تتمثل فى المواجهة والتحدث والمثابرة وتحمل المشاق وصدق التعبير ، وتنسيق المعلومات وربطها واستخلاص قانونها ثم الرضوخ عن رضى واقتناع ، للحقيقة الواقعة ، أو قبول الحكم الواقع حتى وإن تناقض مع عاطفة أو تقليد موروث ، أى حب الحقيقة والانفعال بها . وأذكر هنا ما قاله العالم الإنجليزى هكسلى الذى ربى نفسه على العلم : « دعم الاستزادة بالمعارف الطبيعية ، والالتزام بالمنهج العلمى فى البحث وتطبيقه على مشكلات الحياة ، حتى استقر ذلك فى نفسى ، ورسخ مع حياتى وأيقنت أن آلام البشرية

ومعاناتها لن يجد منها إلا صدق الفكر والمواجهة العنيدة للعالم كما هو فى الواقع »[1] . ولا ريب فى أن مجتمعا يعيش على العصبية والتعصب ،وذاتية الحكم والهوى ، والانقياد للفظ الرنان إعجابا ، أو لسطوة السلطان خوفًا وإرهابًا ، من العسير عليه أن يتغير بين يوم وليلة إلى مجتمع يسوده مزاج علمى يستهويه وينفعل به ، ويذود عنه ، ويرى فى العلم سلاحه وأداته للانتصار على الواقع دون الضياع مع تهاويم هى رقى وتعاويذ ، ينعم بتخييلات انفصامية ، وتضيع منه الحياة .لقد عشنا قرونًا تأويلاتنا للواقع وتفسيرنا للحياة ، ونظرتنا إلى الوجود نابعة كلها من ذواتنا . وأى مجتمع قد تواجهه هذه العثرة إذ يجد أهله أن تأويلاتهم تصطبغ بالضرورة بخبراتهم الذاتية ، وأن نظرتهم تلونها بيئتهم الاجتماعية ، وافتراضاتهم تنبع من إيحاء ذاتى واجتماعى . ولكن غرس بذور المزاج العلمى العقلانى الناقد من خلال التربية الطويلة الأمد منذ الطفولة ييسر نفى كل هذه العوائق والتخلص من كل تلك الشوائب .إذ تعودنا التربية العلمية على الحكم الحذر ، والحرص عند إطلاق الأحكام خشية الزلل أو قصور فى المعطيات ، والشك فى النتائج المتسرعة ، وأن ليس ثمة حقيقة مطلقة ، وأن ندع دائمًا مساحة لاحتمالات الخطأ . وهذه بحق هى أصعب الفضائل

(١) A- thomson : intr. To science ; oxford Univ. Press 1928.

العلمية على النفس . وإن أى محاولة لتأكيد حكم ما دون بينة ليس
ضلالاً أو تضليلا بل إنه يصل إلى مستوى الجريمة التى توجب
توقيع عقوبة الحرمان على مرتكبيها . إنها خيانة للأمانة العلمية ك
هو سائد فى عرف الباحثين والعلماء .

إن أهم قيم أخلاقية يتحلى بها التفكير العلمى أو الخلق
العلمى : الموضوعية والابتعاد عن الذاتية ، والتسامح الواعى النقدى
لكل ما يخالف النتائج التى نتوصل إليها أو يخالف معتقدات
الموروثة طالما وأن البرهان التجريبى يثبت صدق الدعوى .الإيما
بالعقل والمنهج العلمى حكما لكل ما يخالف الموروث أو السلطة
سلطة الأوثان التى حدثنا عنها الفيلسوف البريطانى بيكون لتأكي
سلطان العقل : وعدم الجمود إذ يكون لدى المرء استعداد لتقبل
نتائج جديدة وتعديل المنهج مع تغير الظواهر ، وخلق تو
منهجى علمى فى التعامل مع الواقع (مجتمعا أو طبيعة أو نفسا)
الأمانة فى النقل والصدق فى التعبير ،الفضول العرفانى أو السع
الدءوب للمعرفة واختراق حجب الجهالة . وهذه هى فضي
الفضائل لأن الإنسان منذ آلاف السنين أو منذ نشأة الوع
وحتى الآن وهو ينشد المعرفة ، ويبحث جادًّا عنها ليعرف الع
الذى حوله ، والمكان الذى يشغله ، والذات التى تشكل هويته

والمستقبل الذى يخطو نحوه واثقًا .وهذه الرغبة استجابة لحاجة ملحة ، بعطش عرفانى ، وهى أيضا شرط لازم للحياة الإنسانية إذ تعزز التوازن النفسى وتحسم التوتر الذى يثيره المجهول دائمًا .

إن موروثاتنا متباينة وغير متكافئة ،وقد أصابها اليبس منذ قرون ، وفقدت نبض الحياة الفعال والمتفاعل المجدد ، ومن ثم فبدلاً من أن تكون بإيجابياتها المتجددة قوة دافعة لنا بفضل التأويل العقلانى ، أضحت عبئا يثقل كواهلنا ، ويحد من قدراتنا ، وجمدت فكرنا ، وأصابت عقولنا بحالة من الشد أو التيبس العضلى Cramp أو الشلل . وبتنا فى ظل الجهالة والتخلف نقنع فى حياتنا العضوية أو المادية بما هو على مستوى الحس البيولوجى ، وفى حياتنا المعنوية والوجدانية والفكرية أسرى ألفاظ مجردة وموروثات أسطورية عفى عليها الزمن ونسبغ عليها صفات الواقع والوجود والحياة إنها مثل نسيج العنكبوت تحصر صاحبها داخل إفرازات ذهنه الداخلية وتصنع عالمه ودنياه ؛ ولكنها أيضا أوهى من نسيج العنكبوت لأن الواقع الحى أقوى واشد صلابة عند الالتزام بالمنهج العلمى وتوفر المزاج العلمى . إننا نستطيع أن نحقق الكثير بالتربية فى ظل مناخ عام يدعم الهدف المنشود ، ورؤية فعالة نابضة يؤمن بها رواد يقودون متهم ؛ وحين يتغير الواقع يتغير معه الفكر والمزاج . فالوعظ

بالمنهج العلمى لا يخلق عالما . وإنما السبيل الوحيد لخلق عالم مبدع ، وسيادة المزاج أو الخلق العلمى هو العمل العلمى ، والنشاط العلمى ، والتربية العلمية فى إطار مجتمع ناهض يدرك أزمته ، ويعى ذاته تاريخا وواقعا ، ويشحذ قواه لبلوغ هدف محدد منشود ؛ ويبن صفوفه صفوة رائدة لا تتعالى عليه بل تتحرك معه وإن كانت أكثر وعيا وأقدر على التنوير .

المدرسة وغرس التفكير العلمى :

تقوم المدرسة بالنصيب الأوفى فى سبيل غرس التفكير العلمى فى أذهان التلاميذ ، أو إن شئت فقل تأصيل الخلق العلمى . ويتم ذلك بوسائل عديدة منها الرائد العلمى للفصل أو لفريق من التلاميذ والذى يتصف بكفاءة واستعداد وخلال شخصية ومعرفية وقدرة على غرس قيم الفكر المستقل فى نفوس تلاميذه ، والاختيار الحر لميدان البحث والاستكشاف التماسا لإجابات عن مشكلات صعبة لا يعرفون حلها . والذى لا ريب فيه أن التلاميذ مهما تفاوتت أعمارهم يحملون بين جوانحهم مشكلات مجتمعهم ، وتؤرق أذهانهم مشكلات معينة قد تكون شخصية ترتبط بمرحلة عمرية من التكوين النفسى ، أو مشكلات اجتماعية . ويمكن للرائد العلمى أن يعودهم على الجرأة فى عرض المشكلات ،

والموضوعية العلمية فى تناولها ومناقشتها . ويمكن أن يخلق من طلابه حلقة بحث علمى تختار مشكلة أو موضوعا بذاته ، يلتمسون تحديدها وفقا لخطوات مرسومة ، ويتمرسون معا على الأسلوب العلمى فى تناوله ومناقشته ، وتكون الحلقة أشبه بما يسمى حلقة عمل Workshop لصوغ وترسيخ آلية « ميكانيزم » النشاط العلمى ، وتأكيد معنى البحث العلمى من خلال « عمل الفريق » أو « روح الفريق » لتأكيد معنى الجماعية خاصة وأن ظروف نشاط وممارسة البحث العلمى لم تعد اليوم رهن بجهد باحث فرد يرصد لها حياته وجهده بل عمل فريق يمتد ويتواصل مع الأجيال . ويفيد ذلك أيضا فى تأكيد مفهوم تقسيم العمل والترابط بينه فى آن واحد . ويحرص الرائد العلمى على غرس الطابع الابتكارى عند تلاميذه إذ يشجع البحث والتأمل والاجتراء على ما اعتاد الناس أن يأخذوه مأخذ التسليم دون نقد أو تحليل .

وحرى بالمدرسة أن تنشئ نواد علمية . وليس المقصود بالنادى العلمى أى حلقة تختص بتحصيل معارف عن الطبيعة فحسب بل نواد متعددة وشاملة للعلوم الطبيعية والإنسانية على السواء ، فيكون هناك ناد للعلوم الطبيعية بفروعها وآخر للتاريخ وثالث للجغرافيا أو الحضارات .. إلخ وليكن كل ناد أشبه ببيئة اجتماعية دراسية توفر أقصى قدر من العناية المركزة بالعمليات الإبداعية . وأن تكون

بيئة للتدريب على حرية الفكر والنقد والتعبير والاستكشاف والبحث دون قيود مسبقة غير إنجازات العلم ، والالتزام المنهجي بقواعد البحث العلمي والتفسير العلمي للظاهرة ، وتنظيم وتحديد خطوات البحث ، وإدراك قيمة الزمن كعامل حاسم وأساسي ؛ وأقصد بالزمن هنا البعد التاريخي لتطور الظاهرة أو الفكرة وأسباب ذلك . ونحرص على تنوع جهود البحث العلمي داخل النادى الواحد على نحو يؤكد أن التباين أو التعدد قيمة فى ذاتهما للوصول إلى الحقيقة فيما بعد . وأن الحقيقة هدف وثمرة جهد مشترك تتنافى وتتعارض مع الواحدية أو الآحادية أو الجمود . ويبدو واضحًا فى أذهان التلاميذ أن العلم ليس عقيدة جامدة بل جهدا دؤوبا ، وسعيا متصلا ، ونشاطا اجتماعيا وجمعيا ؛ وأن النادى جماع أشكال مختلفة ومتباينة من النشاط البحثى ، والمترابطة فى ذات الوقت ؛ وبمعنى أن التباين لا يعنى التنافر بل هو أنشطة متباينة ومترابطة على نحو تكاملى فى آن ، يقوم بها أفراد عديدون متباينى الاهتمامات والجهود وإن توحد الهدف البعيد الذى يجمع بينهم ويربط فى تكامل بين جهودهم ، ومن ثم يشكلون معا اتصالا واحدا ، واستمرارًا مطردًا .ويؤكد هذا لهم أن الظاهرة العلمية ليست شيئا مسطحا ، أو ذات بعد واحد ، بل متعددة العناصر ، تنطوى على مجالات بحث مختلفة لكل منها نهج بحثى مميز وإن ترابطت معا على نحو ارتقائى .

ولاريب في أننا إذا ما نجحنا فى خلق نواد من هذا الطراز فإن هذا سيدفع بأعضاء النوادى إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة بين آليات هذه النوادى وما حققته من نجاحات وبين النظام الاجتماعى من حيث الاتساق والتجانس وتضافر الجهود ، أو من حيث التنافر والتشتت . لماذا يثمر النادى ويقدم أعضاؤه نشاطا ناجحًا بينما يفشلون فى الخارج ، أى فى المجتمع الخارجى حيث لا تتوفر حرية رأى وابتكار مثلا ، أو حيث يتوفر نهج علمى فى البحث والنظر على النحو الذى تدربوا عليه وتذوقوه داخل النادى .. إلخ وهكذا تتوفر لهن نظرة انتقادية لنظام المجتمع وتتحد رؤيتهم بشأن الخطوط العامة الأساسية لإصلاحه .

كذلك فإن النوادى ، والتعدد فيها ، أو التباين يؤكد البعد عن النمطية وعن الجمود أو الحياة فى قوالب والامتثال أو الرضوخ السلبى لزى فكرى اجتماعى موحد ، وهذه إحدى الآفات التى نعانى منها استسهالا للحياة وكسلاً وابتعادًا عن الملاطمة وخوض معارك التحدى مع الواقع . وتفيد نوادى العلوم أيضا فى غرس فضيلة البعد عن النمطية فى طريقة البحث ، وبيان تعدد جوانب الظاهرة ومستوياتها وزوايا النظر إليها ، وكذلك من حيث التفسير وفهم معنى القانون العلمى . ويكشف هذا النهج فى المدرسة عن علاقات واقعية بين الوعى والظاهرة موضوع البحث وبيان نسبية

الحقيقة . ومن ثم يبدو واضحًا أن الوعى العلمى تطور تاريخى مطرد ، فيه قبول ونفى وإضافة جديدة دائمًا مع تغير الظاهرة وتطور أداة البحث . ويقر فى العقول أن الإنسانية تستهدف حقيقة مطلقة ليست قائمة مكتملة ولكنها منشودة أبدًا ندرج معها على مراحل بامتداد الحياة الواعية والزمان ؛ وأن الوعى الإنسانى والجهد الإنسانى العملى كلاهما حركة تاريخية متضافرة سعيًا إليها . ويقر في الأذهان كذلك أن ليس هناك كهنوت فى العلم أو المعرفة ، وأن السلطة للواقع وللعقل والتجريب .وأن المعرفة البشرية ليست مطلقة . أو ليست صادقة صدقًا مطلقا بل تغيرت عبر التاريخ على الرغم مما أحاطها من هالات قدسية أحيانًا ، أو دعمها ثقل اجتماعىلا يقاوم ؛ ولكنها طفرات ، أو تقدمت فى صورة طفرات مع تقدم أداة البحث أو المنهج وحاجات الإنسان .

ويدرك الطالب أن الظاهرة الواحدة يجرى بحثها من جوانب عدة ، أو أنها تكشف عن مشكلات بحثية متعددة أو جوانب متباينة من حيث مستوى التطور وطبيعة التخصص العلمى ، ولكل جانب أداة أو منهج عرفانى لبحثها ؛ وأن هذه المناهج متكاملة تكامل الظاهرة وهو ما يعنى فى غاية الأمر أن مناهج البحث العلمى تشكل معا كلا متكاملاً ، تكامل عناصر الوجود ووحدتها : الإنسان والمجتمع والكائنات الحية والطبيعة العضوية وغير العضوية .

إن المعرفة عملية دينامية ارتقائية . وإن موضوعات البحث والمعرفة جد متباينة : من موضوعات الطبيعة إلى الحياة إلى المجتمع إلى الإنسان والنفس ، لكنها جميعًا متكاملة .والمعرفة علاقة بين الذات العارفة وبين موضوع المعرفة على تباينه . والاكتشافات العلمية فى مجال ما تؤثر على وسيلة الاكتشاف وسبل المعرفة فى مجال آخر ؛ فقد تساعدنا وترتقى بنا ، وقد تدحض معارف سابقة ظننا سلامتها حينا . والمعرفة عملية جرد وفرز متصلة لإسقاط ما يثبت بطلانه وتأكيد الصواب النسبى دائمًا . وتعبر وسائل المعرفة عن المستوى العرفانى والتقنى الذى وصل إليه الإنسان فى سلم ارتقائه ، ولهذا فهى تتعدل دوما ، بمعنى أننا بحاجة دائمة إلى عمل مراجعة وغربلة نقدية لحصادنا أو إرثنا من المفاهيم التقليدية ومعارفنا المتجمعة تاريخيا سواء من حيث المحتوى أو من حيث وسيلة المعرفة وتطابقها مع الواقع .

وإذا كانت روح المنهج العلمى هى الحرية والموضوعية إذن يجب أن لا يخضع النادى العلمى لسلطان قاهر استبدادى ، مادى أو معنوى ، يمنع هذا ويحرم ذاك ؛ بل يجب أن نشيع فيه ديمقراطية الروح العلمية والتحدى الجرىء ، والتواضع الذى يجعلنا ننصت جيدًا إلى الرأى الآخر . فالعلم فى جوهره ديمقراطى ؛ بل إن الديمقراطية هى ثمرة من ثمار البحث العلمى : ويحسن

أن يتمتع النادى بنوع من الحصانة فلا يخضع لرقابة تشكل قيدًا على حرية الرأى ، ويتأكد هذا لأعضائه سواء بالسلوك العملى أو من خلال وثيقة شرف تكون دستورا لعمل النادى .

وتكشف الممارسة داخل النادى عن العلاقة بين طبيعة الإدارة وبين نجاح جهود النادى ؛ وهو ما يوضح أن التقدم العلمى لا يمكن فرضه ولا إخضاعه لسلطة واحدة ، وإن كان يقتضى التخطيط باعتباره خطوات مدروسة تصل بنا إلى هدف محدد بناء على بحث وفهم للواقع . والتخطيط ليس التزامًا جامدًا متزمتا بل وعيا بمراحل الحركة مع فرصة للمراجعة ضمانًا لسلاسة الانطلاق .

ويعتبر النادى العلمى فرصة لغرس العقلية النقدية فى التعامل مع الوقائع ، سواء أكانت هذه الوقائع مادة أو حدثا طبيعيا أو وثائق تاريخية ، أو قولاً مأثورًا .. إلخ ذلك لأن الموضوعية العلمية ليست تقبلاً سلبيا بل مواجهة نشطة . إنها إدراك واستيعاب نقدى لذات فاعلة ، وتأكيد مطرد بصواب منهج البحث ، ونفى مطرد لما يثبت خطؤه من موروثات ،وصياغة للحياة لأسلوب التعامل معها .

إن موضوعية القوانين العلمية ، كما تنعكس فى التقدم العلمى ، لا ترتبط فقط بالعلم من حيث أنه معرفة خالصة بل ترتبط به أيضًا من حيث أنه نشاط كذلك . العلم معرفة ونشاط فى آن واحد ، إن البحث العلمى مهمة إنسانية ، إنه استكشاف وابتكار وتطبيق ، وهو

برنامج عمل هادف ونضال وتحد من الإنسان مع الطبيعة لخير الإنسانية .

وإذا مارس أعضاء النادى جهودهم من خلال مشروعات بحثية تطبيقية ، فسوف يتضح لهم أن المعرفة العلمية ليست منفصلة عن نفع الإنسان وخيره ، وليست مقطوعة الصلة بالمجتمع . وأن المعارف فى تطورها التاريخى صارعت وناضلت من خلال أصحابها وعلى أيديهم ، وأن هناك من دعم المتوارث التقليدى أو المعارف القياسية ، وهناك من حمل منارة الجديد وعانى فى سبيل ذلك ، وأن الروح العلمية الأصيلة هى الابتكار فى ظل مناخ التسامح .

ويحسن أن تعنى النوادى العلمية بأخبار الاكتشافات العلمية الحديثة فى إطار مدلولاتها ، والمؤتمرات العلمية وموضوعاتها ، بغية إثارة الاهتمام بهذه الأحداث . وأن تبدى عناية بالمعارض العلمية سواء بزيادة المعارض أو إقامة معارض لنشاطها والإشادة بالجادين المنتجين من أعضائها . وأن تعمل على توفير النشرات والمجلات العلمية الملائمة التى تعرض مظاهر التقدم العلمى بأسلوب سهل بسيط مصور مع كشف الخلفية لمظاهر التقدم الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والحضارى لهذه الأحداث ، ويمكن لأعضاء النادى عمل نسخة محلية يتولون هم إصدارها وجمع المعلومات

الخاصة بها ، وتعرض من بين ما تعرض ، بحوثا للأعضاء عن القصص التاريخى للابتكارات وعن سير العلماء وما شابه ذلك .

التفكير العلمى والتاريخى :

نحن نتحدث عن النوادى العلمية هنا كمثال لحقول تجارب أو مصانع تفريخ ، وبيئة تربوية لطلائع علميين يتحلون بالخلق العلمى . غير أن هذا لا يغنى عن المناخ العام للمجتمع والتعليم .إذ يتعين الالتزام بالمنهج العلمى فى تقديم المواد الدراسية المختلفة ، والتحلى بروح التسامح والموضوعية والصدق ، ومعاناة الالتزام بالصدق فى عرض هذه المواد بعيدًا عن أى شبهة انحياز ، ولعل من أخطر المواد المؤثرة فى بناء الفكر والشخصية مادة مثل مادة التاريخ . ولهذا ليس غريبًا أن تكون هى من أولى المواد التى تتعرض للانتهاك والتزييف على أيدى الغزاة والحكام الطغاة ، وهى المادة موضوع الصراع الدائم والعنيف بين القوى الوطنية وبين أعدائهم ، ولهذا أيضًا لم يكن غريبًا أن يعنى رائد النهضة وباعث الروح القومية المصرية رفاعة رافع الطهطاوى بتدريس التاريخ وبيان أمجاده من بين ما عنى به من دراسات حضارية رآها ركيزة للبعث القومى وصوغ الفكر الجديد ، وهو ما كان بحق شرارة قدسية . ولهذا ينبغى العناية بتدريس التاريخ باعتباره حركة الأحداث والوقائع بفعل الإنسان فى الزمان وداخل إطار قوى اجتماعية وطبيعية تعبر

عن نفسها فى نظم حكم وعلاقات اجتماعية ، وفكر سائد وثقافة غالبة . ويتعين تأكيد النزعة التاريخية فى التفكير كمنهج يعالج التاريخ باعتباره عملية محكومة بقوانين موضوعية ومتكاملة ، وليست عملية خاضعة لأزمات فكرية أو افتقارا لتقاليد تاريخية تجاوزها المجتمع ونظن أن غيابها هو سر أزمتنا ، وأن الحل ردة إليها . وإن أكد هذا دور الثقافة الاجتماعية كسلطة تعيق أو تحفز فعالية الإنسان مع أحداث التاريخ .

ويقتضينا غرس التفكير العلمى العناية بالمنهج المقارن فى تدريس التاريخ والحضارات . مقارنة المضامين الحضارية أو الثقافية وطبائع البيئة الجغرافية والعرقية دون تحيز أو انحياز أو مفاضلة ؛ وإنما فى سياق وضوء التطور الحضارى على نحو يغرس الأمل . ويفيد هذا فى توفر نظرة رحبة وأفق أوسع إزاء الواقع بعيدًا عن التعصب العقائدى ، ويفيد كذلك فى استكشاف قوانين حركة التاريخ ، وبيان أن التاريخ ليس عملية قدرية عشوائية ، ولا حركة ميكانيكية ، وأن اطراد التاريخ اطراد لمسيرة الإنسان .

. ويبدو هنا جليا من خلال دراسة التاريخ والحضارات أن الماضى ليس آثارا أو أطلالاً للفرجة والمشاهدة الممتعة وإطلاق آهات تعجب أو مصمصة الشفاه حسرة ، بل الماضى أو التاريخ جذور ضاربة فى أعماقنا ، وثقافة نافذة فى فكرنا ووجداننا حتى النخاع .

ويتضح كذلك أن الماضى بكل تبايناته الثقافية ليس قدس الأقداس ، بل ينطوى على سلبيات وإيجابيات ، والإنسان هو صانع التاريخ ، إنه حين يعمل ويبتكر ويستكشف فإنه يبنى حياته ويصنع تاريخه ويؤكد ذاته .

إن آثار الماضى يمكن أن نحيلها إلى شخوص جامدة ميتة لا حياة فيها ، ويمكن أن تنبض بالحياة وتصوغ رؤيتى إلى ذاتى ومجتمعى ، إلى ماضى وماضى الإنسان بعامة . إنها تؤثر فى صوغ النظرات التاريخية للشعب الذى أبدعها . إنها تواصل الحياة فى وجدان الشعب . وهى رموز لتاريخه محفورة فى العقل والوجدان ، وكل محاولة لطمس هذه الرموز هى محاولة لاغتيال ذاكرة الشعب وانتزاعه من جذوره حتى يسهل اقتلاعه .إن رؤية الأهرامات ، كمثال ، قد تصبح عشقًا للصمود ، وتحديا لظروف الدهر ، وترسيخًا لمعنى العظمة والشموخ والإبداع ، وتأكيدًا للثقة بالنفس والاعتزاز بما تصنعه يد الإنسان .. إنها حلم الخلود ، وهوى البناء دون الهدم ، وهى شهادة نسب أننا لسنا لقطاء . وهى حافزة للجد والمحاكاة والارتقاء . ويمكن أن نرى فى أمنحتب رمزًا للعلم كقيمة قدسية . ونرى النيل رمزًا للاتصال والأبدية وصورة للسلام والخير والفيض والنماء والوحدة . ويمكن أن ندرك كيف أن الفن ازدهر

مع العدالة واحترام قيمة الإنسان .. وأن المسلة رفعة وسمو أو تسام إلى عنان السماء ، وكذلك المئذنة وبرج الكنيسة وكل عناصر ثقافتنا على تباينها أو تعددها . إن احترام التاريخ مجسدا فى الآثار احترام للذات وطموح للمستقبل ؛ فالآثار هى أحزاننا وأفراحنا ، آلامنا وآمالنا ، وهى رموز دالة على عناصر تكويننا الوجدانى . وهى ليست أضرحة ولا مزارات لأولياء نتبرك بهم وإنما رموز نعى مدلولاتها وعيا نقديا ، إنها مظاهر حضارية وثقافية نعيها وندرسها وفق منهج علمى بحيث نستوعب ذواتنا الحضارية القومية ، ونعلو عليها بما نضيفه نحن أيضا بجهدنا العلمى . وتتوفر لنا الرؤية العلمية لحياتنا حين تتحد النظرة العلمية لمعطيات العلم الحديث ، بنظرتنا النقدية العلمية لتراثنا الثقافى التليد .

أقول هذا بمناسبة ما تعرضت له البلاد العربية من انتهاك ثقافى لاتزال آثاره تنخر فينا ، وانعكس على مجالات عديدة منها أسلوب تلقين التاريخ ، وهو ما تعرضت له أيضا بلدان العالم الثالث بصورة أو بأخرى ، وكان منها من تدارك موقفه وأعاد صياغة منهجه ليصنع صورته الذاتية وصورة الآخر ، ومنها من ينتظر . لقد استهدفت كل القوى الغازية التى وطئت أقدامها الثقيلة الغريبة أرضنا زاحفة من الشمال أو من الشرق ، أو من أى جهة من

الجهات الأربع الأصلية ،استئصال القيم الثقافية الأصيلة للشعب المهزوم وإفقاره روحيا ، وقطع الصلة بماضيه . وهو ما يعنى سلبه ميراثه الثقافى ووجدانه الجمالى ، وكلها مرهونة بإبداع تاريخه مجسدة فى أجمل أعماله الفنية . وهذا الميراث هو رمز انتصاره على الطبيعة وهو رصيده فى النضال ومقاومة النفوذ الضارى للقوى الغازية . وقاومت القوى الغازية ذلك بمحاولة النفاذ والتغلغل فى حياة الشعب المهزوم ثقافيا ، وعمدت إلى غرس ميولها واتجاهاتها وقيمها ، وإعادة صياغة تاريخه ، وإن التمس الشعب وسيلة أخرى لاستيعاب تلك الثقافات الواحدة ، وانتصر عليها بأن أسبغ عليها وجدانه الثقافى وصاغها ، أو صبغها بصبغته الحضارية حين عايشها .

بيد أن هذا لا ينفى استمرار التوتر والتناقض ، وهو ما ينبغى أن يكون حافزا للحركة إذ لا تزال حجب كثيفة متحيزة تحجب الرؤية الصحيحة إلى التاريخ ، ولا نزال أبعد ما نكون عن النهج العلمى الموضوعى فى دراسة وتدريس التاريخ . إن معرفة تاريخ الشعب والبلد وأمجاد الماضى ممثلة فى آثاره وتراثه الثقافى والحضارى يثرى الكيان الروحى للشعب ويمكنه من التصدى بقوة وعزيمة . كما يمكنه من أن يمايز بين ما هو أصيل وخالد وبين ما هو غث وشكلى . ونعرف أن كل ما هو أصيل وإيجابى فى إبداع أعلام الماضى وأبطاله على مدى القرون والأحقاب ينطوى على عنصر

دائم وأبدى وخالد : هو روح الشعب ومثله العليا وأمانيه المشعة ذات الصبغة المتميزة والتى تمنحنا جميعًا شخصيتنا القومية والقدرة على فهم وترسيخ معنى وحدتنا القومية الاجتماعية ، والانتماء . فالتراث الثقافى والتاريخى قوة معنوية دافقة ودافعة مهولة ، وتأكيد لوعى زاخر بالمضمون . والنأى عن هذا عزوف عن النهج العلمى فى تناول التاريخ . وانتهاك لأبسط قواعد التفكير أو الخلق العلمى ، ومحاولة لتشويه بناء الإنسان ثقافة ووجدانا وفكرًا .

إن الإنسان كائن حى : يفكر ، يشعر ، يحس ، يقرأ ، يشاهد ، يؤول ، يسقط مشاعره على الخارج .. فعًال بنًاء .. وهو فى كل هذا ثقافة موروثة ومنتجة فاعلة ومتفاعلة ، وإنه فى اتصال دائم يقيم ثقافية تراكمت عبر آلاف السنين . معنى هذا أنه لا يستطيع العيش والتفاعل مع الحياة بدون معرفة عقلانية نقدية للتاريخ . والتاريخ ليس مجرد ذاكرة تستوعب أحداثًا صماء ، وتواريخ أو مواقيت جامدة بغير حياة ، بل إنه منهج يعلمنا أولاً أن نفكر على نحو تاريخى تطورى أى أن التاريخ نمو وحركة لها قوانينها . ويعلمنا أيضا أن ندرك الروابط التى تربطنا أفرادا وجماعات بمجتمعنا وجذورنا الثقافية ، أى التاريخية الاجتماعية النابعة من واقع جغرافى محدد ، ومن ثم يربطنا بآمال المجتمع . لهذا فالتاريخ مكون أساسى من مكونات فكر الإنسان مهما كانت مهنته أو حرفته

ويتعين تلقيها أو تلقينها وفق منهج علمى سديد حتى يكون فكر المرء مستقيمًا ، ونظرته إلى ذاته صحيحة ،وسلوكه مع الواقع والحياة قويمًا . لهذا تتجاوز معرفة التاريخ حدود المعرفة ذاتها .إنها أيضا قوة أيديولوجية وأخلاقية تصل بين العصور والعهود المختلفة ،وتربط الأجيال المتعاقبة وتغرس التفاؤل التاريخى فى نفوس البشر ، وترسخ شعور الثقة فى التقدم ، والانتصار دائمًا ، انتصار الجديد على القديم .وهذه هى الدلالة الاجتماعية للتاريخ والتى لا تتأتى إلا من خلال تناوله على نحو علمى .

ويفيد فى هذا أن نقدم تاريخ الفكر العلمى باعتباره تراثًا ، ونعرض التفكير العلمى كعملية تاريخية ممتدة مع امتداد البشرية وصراعها ونضالها ضد الأفكار المناهضة ثم انتصاراتها وعثراتها وأسباب ذلك . وإذا كان التفكير العلمى تراثًا إنسانيًّا ممتدًا له تاريخه فى أوروبا الحديثة ولدى الإغريق فأولى بنا أن نقدم ذلك كله ، ونضيف إليه تراثنا فى التفكير أو التاريخ النضالى للتفكير العلمى فى مجتمعاتنا العربية بامتدادها الحضارى منذ الفراعنة الأقدمين والبابليين وتراثنا العربى والشرق أوسطى ليكون جزءا من البانوراما الإنسانية آملين أن نضيف من عندنا ما يؤكد ذاتنا فى ملحمة التقدم الإنسانى ، ولا نقتصر على ما يقوله الأوربيون .

والتاريخ العلمى فى إطار التاريخ ليس قاصرًا على التاريخ القومى وحده بل يشمل تاريخ الإنسانية جمعاء ، والشعوب المختلفة ،ذلك لأن من صفات العقلية العلمية أن تكون عالمية النطاق تتسم بالشمولية .ومثلما يتعين علينا أن نفكر على نحو علمى ونحن نعرض تاريخنا القومى ، كذلك يتعين أن نكون علميين فى تناولنا لتاريخ الشعوب الأخرى سواء من حيث الموضوعية النسبية والنظرة النقدية الحرة المتحررة وبيان قوانين حركة التاريخ . والإنسان لا تكتمل إنسانيته ما لم يثر عقله وفكره بمعرفة كل الكنوز التى أبدعتها الإنسانية فى الفن والموسيقى والعلوم والآداب ... إلخ وهو ما يوضح خطأ وخطل رأى دعاة تدمير واستئصال القيم الثقافية والحضارية الغربية عنهم أو التى تتناقض مع فكرهم وثقافتهم ، ويؤثرون الانغلاق على أنفسهم . والحفاظ على الكنوز التى أبدعها عقل ووجدان الإنسان على مدى التاريخ يعلمنا كيف ندرك الجمال ونتذوقه ، ويعلمنا كيف نعلى من قيمة العمل الإنسانى الإبداعى قديمًا وحديثًا دون تعصب ، ويعلمنا أيضا أن نحترم التاريخ ونعيه بصورة أفضل وأصوب ... وضياع هذه الكنوز كلها أو بعضها ، ضياع للمنهج العلمى فى رؤيتنا للواقع بامتداده التاريخى وشموله الإنسانى ، ويعنى أننا نصبح أفقر روحيا .

وما قلناه عن التفكير العلمى فى نطاق التاريخ ، يصدق كذلك

على العلوم الإنسانية الأخرى : المجتمع والحضارات والفلسفة .. إلخ كما يصدق على العلوم الطبيعية ذاتها . إذ يجب أن ينفذ العلم كنظرة ومزاج وخطوات وقواعد إلى كل المواد التعليمية فتكون مواد ذات صبغة علمية فى نهجها . وأن نصبغ تعليم العلوم بصبغة إنسانية ، ونوضح الطابع الدرامى والملحمى للتقدم العلمى ذاته . ونربط تاريخ العلم بالتاريخ العام .. فالعلم تغير دائم ونشاط فعال مطرد ، وليس مجموعة حقائق جامدة ، وإنما هناك جديد أبدا .. إنه ليس تاريخ بل حركة دافقة متجددة . بينما الملاحظ فى سياستنا التعليمية وتربيتنا الفكرية أننا نعنى بحشو الرءوس بمعارف علمية متراصة لا يدرى الطالب شيئًا عن معنى الترابط العلمى بينها ، ولا عن معنى وحدة العلوم ، كما يفتقر إلى القدرة على تكوين نظرة كلية شاملة إلى الظاهرة العلمية موضوع البحث ، ناهيك عن الإنسان والوجود . فطالب الطب الممتاز مثلا هو من يحسن استظهار جزئيات المعارف ، ويحفظها مثلما يحفظ سور القرآن ، وربما بطريقتها أيضــا وإن أعوزته نظرة كلية إلى الإنسان كوحدة أيكولوجية اجتماعية وجودية ، وأنه لا انفصال حقيقى بين الجزء والكل وإنما هو انفصال منهجى ظاهرى تيسيرا للدراسة .. وأكثر من هذا أن مثل هذا الطالب قد لا يعرف معنى الصدق العلمى

أو البرهان العلمى والانحياز له ، ولا يعرف شيئًا عن تاريخ علم الطب وسير أساطينه ولا ريادة مصر وما بين النهرين والصين والعرب ، وانتكاسنا بعد ذلك ، ولا يعرف العلاقة بين ما يدرسه من علوم وبين مشكلات مجتمعه وتاريخه وثقافته .. ثم دوره ومكانه هو بعد ذلك .. إنما يخرج إلى المجتمع مبتسرا خديجا ، مبتور المعارف ، وعاء لجزئيات قد يجيد تطبيقها فى مجالها المحدد والمحدود ، أما التفكير العلمى فى مجال تخصصه فهو أبعد ما يكون عن نفسه وهواه . لذا لا يكون غريبا أن تقر فى نفسه فردية بحتة ، سواء فى ممارسته العلمية أو الحياتية . ولهذا يخرج برأس مملوء نثارا من المعارف الضيقة التخصص ، قد تكون غزيرة فى نطاقها ، ولكنها شديدة التخصص والانغلاق ، ولا تتجاوز حدود تخصصه ، وما زاد عن ذلك فهو مساحة بيضاء يشارك فيها سواه ممن هم دونه علمًا وربما العامة . ويخرج أيضا دون تدرب على المنهج العلمى وقواعده ويخرج ثالثًا وعلمه مبتور الصلة بثقافة مجتمعه والثقافات العلمية الأخرى ، وهو ما يعنى افتقاره إلى رؤية شاملة للكون والحياة والمجتمع وحركته ، وهى العناصر الكفيلة بتحديد أهداف الإنسان فى الحياة . وما يصدق على طالب الطب يصدق على غيره من طلاب العلوم والتخصصات الأخرى . إن

التعليم فى أفضل صوره الأمينة تحصيل واستظهار وتلقين ، وليس أداة توجيه وحفز للفكر ، أو دافع لمزيد من البحث ، أو بيان للصلة بين المشكلات التقنية والواقع وليس تدريبًا على كيفية ممارسة المنهج العلمى وتذوق الحقيقة العلمية فى التحقق منها وإيثارها والالتزام بها .

التفكير العلمى نهج الحياة .. وللحياة :

مثلما أننا بحاجة إلى أن نتعلم كيف نفكر علينا ، أن نتعلم لماذا نفكر على هذا النحو ؟ لماذا ينبغى أن نرصد جهدنا للبحث العلمى ؟ ما هى غاياتنا وأهدافنا ؟ هل العلم للعلم ؟هل هو ترف وإزجاء للوقت ؟ أم العلم للتقدم ؟ ونحو أى اتجاه ولأى هدف ؟

لم تعد الحياة خبط عشواء ، ولا اختيارا تعسفيا ، ولا أمانى كذاب تطلقها الألسن ونحن قعود ؟ولم تكن كذلك أبدا ، وإن أصبحت اليوم أكثر تكثيفًا ، إذ لم تعد ثمة فرصة لضياع الوقت ونحن فى عصر أبسط تعريف له أنه عصر ثورة المعلومات وثورة توظيفها . فزخم حركة التطور الارتقائى للمجتمع أصبح زخما شديد الكثافة ، سريع الحركة يدفع بالقابع إلى الخلف أجيالاً وقرونًا فى سنوات معدودات . وهذه الحركة التطورية الارتقائية للإنسان

والمجتمع ركيزتها العلم : الاكتشافات العلمية وسرعة تطبيقها ، والإفادة منها فورًا فى الحياة العملية .

والتفكير وظيفة ذهنية إنسانية . إنه عملية ذهنية يقوم بها الإنسان فى تكامله وليس المخ وحده مستقلا وهو أُداة الإنسان فى التعامل مع الواقع بناء على تصور كامل لهذا الواقع وفهم له .والتفكير أيضا محصلة معارف تلقاها الإنسان وتراكمت على نحو معين قد يكون منسقًا أو عشوائيًّا تلقائيًّا ، يرى المرء من خلالها واقع حياته ، ويتوسل بها فى تعامله مع هذا الواقع . ولكى يكون التفكير علميا لابد وأن يلتزم بمنهج مرسوم الخطوات فى تحصيل المعارف والتزامها بخطوات المنهج ، وانتظامها فى نسق ، أو الأخذ عن مصدر موثوق ومعتمد علميا . وإيثار علمية المعرفة دون سواها ليس تعسفا ، بل تأكيدًا لمصلحة الإنسان فى أن يضمن الوصول إلى هدفه بأقصر الطرق وأضمنها بدلاً من أن يقضى حياته مع المحاولة والخطأ أو مع صفقة خاسرة حين يبيع واقعه الموضوعى وإنجازات علمه إيثارًا لتقاليد وأفكار موروثة ، فيقضى عمره كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، فإن العلم فى تباين مصادره ومباحثه هو فى نهاية المطاف أصدق صورة نسقية متاحة عن الوجود الإنسانى والاجتماعى والطبيعى ؛ ومن ثم أضمن السبل

لتوفير حياة ناجحة تعبر عنها سيادة الإنسان على مقدراته ، وسيطرته على الطبيعة واختياره لأهدافه .

ويحقق العلم لذلك ثلاثة أهداف ينزع الإنسان إليها تلقائيًّا ، وهى أهداف نفسية وعقلية واجتماعية . إنه أولاً إشباع لنزعة حب الاستطلاع أو استجابة لرغبة طبيعية لدى الإنسان لفهم العالم وظواهره والإنسان والمجتمع . وهو ثانيًا محاولة للاستكشاف وكشف الغامض واستجلاء المبهم ، أو هتك ستر المحجوب والمجهول ، وتقديم فهم كامل عن الذات وعن العالم الخارجى وتكوين خلفية للمعارف المنظمة التى توفرت عن الطبيعة والإنسان ، وفهم سبل اكتساب هذه المعارف ، والإفادة بها ، ومراجعة صدقها . وهو ثالثًا تطبيق هذا الفهم على مشكلات الحياة ، سواء فى التعامل مع الطبيعة أو فى مواجهة مشكلات المجتمع والحياة ، أو فى تناول مشكلات النفس .

وهكذا يعد التفكير العلمى بحق مكونًا أساسيًا من مكونات النسيج الاجتماعى . إنه الجهد الواعى من أجل صوغ إطار النشاط الاجتماعى والإفادة بالمعارف البشرية والوسائل التقنية من أجل رفاهة الإنسانية .فليس العلم فقط مجرد معرفة مكونات عناصر الطبيعة المادية ابتغاء تعزيز التقدم التكنولوجى والذى ساد مع سيادة إنتاج الآلة ، وإنما يعنى أيضا ، وفى المحل الأول ، فهم قوانين

الحياة الاجتماعية وتطبيقها فى الممارسة العملية من أجل تحصيل التقدم الاجتماعى . ولهذا كان التفكير فى عصر النهضة الأوروبية ثورة على الماضى وعلى الجهل أو الجاهلية . وكذلك التفكير العلمى المنشود فى بلادنا ، إنما نستهدفه أداة لتغيير الواقع الاجتماعى وثورة على الجاهلية المتفشية .

وبيت القصيد هنا هو العلوم الاجتماعية ، أو التفكير العلمى فى ميدان علوم المجتمع والإنسان ولهذا ليس بمستغرب أن تسعى قوى التجهيل جاهدة من أجل طمس هذا الجانب ، أو تشويه وإفساد علمية التفكير الاجتماعى لأنه هو الخطر الذى يتهددها ، ولأنه فى جوهره ثورة على سلبيات وأخطاء الماضى ، وضد أى ردة إلى الجاهلية . إذ يستهدف التفكير العلمى فى مجال العلوم الاجتماعية .

١ – تحديد طبيعة المشكلات الاجتماعية والاتجاه الصحيح للتحولات الاجتماعية ، والبحث عن الوسائل الملائمة لبلوغ الأهداف المنشودة ، وسبل التنظيم القويمة ، والتنسيق بين التغيرات فى المجالات المختلفة للنسق الاجتماعى . أن يكون التفكير العلمى ركيزة صنع القرار وتحديد الأهداف والوسائل ...إلخ للنشاط الاجتماعى .

٢ – استخدام العلم كوسيلة لتطوير الذات الاجتماعية ،إذا صح هذا التعبير ، وتنمية معلوماتها والارتقاء بوعيها وتربيتها وكذا

الارتقاء بوعى الجماهير وتربيتهم الإنسانية ، إذ بهذا تزيد مبادرتهم فى حل المشكلات الاجتماعية ، وصوغ صور مستقلة لأساليب التنظيم الاجتماعى والمبادرة الإبداعية . ونسهم بذلك ، أفراد الجماعة فى تشكيل وتطوير الوعى .

٣ - استخدام التفكير العلمى أداة لمحو السلبيات المسئولة عن التوترات فى النسق الاجتماعى ، أى الكشف عن المتناقضات وتحديد ثقلها وأثرها فى المجتمع . وتفيد الدراسات المقارنة للحضارات فى الحد من غلواء التعصب وضيق الأفق حيث يشعر الواهم أنه ليس فريد عصره وزمانه بل نظيرا لغيره ، وغيره كثيرون .

٤ - ويفيد التفكير العلمى أيضا فى تأكيد إرادة الإنسان وجرأته المنظمة على معالجة عوامل الجهـل والتجهيل ، ومن ثم يعد هذا التفكير جهدًا إيجابيًا ، وهو النقيض لسلبيات اللامبالاة التى تعم مجتمعاتنا . وهكذا يصبح التفكير العلمى كما قلنا أحد مكونات نسيج الوعى الاجتماعى الناهض دوما . ولهذا تسعى القوى المحافظة إلى إفراغ العلـم من مضمونه الاجتماعى وإلى إنكار التفكير العلمى وجحد فائدته ومناهضته بحجة تعارضه مع الموروث والتقليد .

إن قيمة التفكير العلمى ودوره فى الشئون العامة يمكن بيانهما وقياسهما عن طريق تأثير التفكير العلمى الواعى على طريقة الناس

فى تناول أمور حياتهم الاجتماعية ومدى حصادهم من المعارف العلمية وارتباطها بثقافة المجتمع . ولكن الداء الوبيل الذى نعانى منه ، وتعانى منه فى ظنى شعوب أخرى متخلفة أو مقهورة ، أن أصبح العلم منفصلاً عمدًا عن الوعى العام .والنتيجة سيئة للغاية لكليهما ، للعلم وللوعى العام على السواء . إنها سيئة للناس لأننا نعيش فىعالم من صنع الإنسان سواء صنع أسباب الرزق أو المأوى أو متع الحياة أو التنافس من أجل هذه المصالح وخوض الحروب طمعًا فيها ... إلخ وتخلف التفكير العلمى يفضى إلى تخلف الإنسان عن إدراك وملاحقة السبل والميكانيزمات التى تحكم حياته وبيان أسبابها وطرق علاجها ، وتصبح مشكلاته معميات . وهكذا يرتد بتخلفه إلى حيث لا نجد فارقًا بين الإنسان البدائى الهمجى بجهله المطبق وعجزه التام أمام ظواهر الطبيعة من جفاف أو مرض ، وبين الإنسان الحديث بجهله وعجزه أيضا إزاء الكوارث التى من صنع الإنسان ممثلة فى البطالة والحروب والتلوث البيئى ونقص أسباب الرزق والفقر والمرض والهزائم والاستبداد . وخير مثال على هذا ما حدث عقب هزيمة ١٩٦٧ ونتيجة لها حين واجه الناس صدمة الهزيمة مغيبين يجهلون حقيقة أوضاع حياتهم ، ولا يملكون تفسيرًا علميا لما حدث وقد عاشوا عزلا من أى تفكير علمى لظواهر حياتهم ، أو مشاركة فى الفهم أو مسئولية صنع الحياة بصورة واعية ، وكانت النتيجة ردة أو هزيمة نفسية قاسية عبرت

عن نفسها بتلك الردة الفكرية وذيوع اتجاهات أسطورية فى تفسير الواقع تحاول أن تلتمس فى خرافاتها سبيلاً للخلاص أو ملاذا يهدئ من روعها . وليس من قبيل المصادفة أن شهد عصرنا الراهن بعثًا جديدًا للخرافة وهو يواجه المجهول المرعب وتصدمه مشكلات لا يملك الوسائل لفهمها بعد أن بات أعزل من التفكير العلمى . ولا يفيد من ذلك الجهل أو التجهيل غير أصحاب المصلحة فى الاستئثار بمغانم قد تكون نفوذًا أو سلطانًا أو مالاً ، ويجدون دعامتهم فى ضحاياهم ممن أصابهم التخلف والجمود .

وإذ كنا ننشد صدقًا غرس التفكير العلمى ، ومن ثم إعادة تنظيم العلم والتعليم وجهود البحث العلمى والمناخ المساعد لذلك ، فلابد وأن نتبين أولاً طبيعة القيم السائدة فى المجتمع ونظرتها إلى العلم وعلاقتها به ؛ أى تحديد اتجاه المجتمع وموقفه من العلم كقيمة . ذلك أن مهمة غرس التفكير العلمى ليست مهمة جزئية بل مهمة اجتماعية شاملة لا يمكن أن يقوم بها وينجزها الباحثون العلميون وحدهم ، أو الدولة وحدها ، أو التنظيمات الاقتصادية خارج مجال العلم ، أو التنظيمات السياسية ؛ وإن كان لكل من هؤلاء دوره ، بل يقوم بها الجميع معا فى تآزر وحسب اتجاه مرسوم ، طبقًا لرؤية تحليلية علمية للواقع والتاريخ والهدف المنشود . ولهذا فإن مسألة غرس التفكير العلمى هى قضية اجتماعية وتربوية

وسياسية ثم حضارية فى آن واحد . وكل جانب منها يعنى البنية الاجتماعية والتربوية ، والسياسية للمجتمع : حشد العلماء والتعليم وتمويل البحوث وتطبيقها والإفادة بها والتربية الثقافية الاجتماعية ... إلخ ويلزم بداية تحديد طبيعة القيم السائدة فى المجتمع واتجاهها من العلم ومناقشة ذلك صراحة ، وتفهم أصولها وجذورها ، وتفنيد ما ينافى العلم منها . ذلك لأن هذه القيم قد تشكل ، وهى بالفعل هكذا ، معوقا لتقدم العلم . وإن تغيير اتجاه المجتمع على نحو يطلق حركة العلم لصالح الإنسانية ويجعل من التفكير قيمة رفيعة يفترض مقدما تغيير بنية وذهنية المجتمع ذاته ، أو يستهدف ذلك ، ليكون مجتمعًا حريصًا على تقدم العلم مؤمنًا به ، منحازًا إليه من أجل صالح البشرية ، وأن يهيئ الوسائل اللازمة لهذا التقدم والاستخدام الاجتماعى الفعال للنتائج المترتبة على ذلك .

إن العلم أو التفكير العلمى وحده هو الذى يمنح الإنسان وعيًا صادقًا بالحياة والطبيعة والنفس والمجتمع والتاريخ ... . وفى ممارسات الحياة ابتداء من طريقة فلاحة الأرض وانتقاء البذور إلى غزو الفضاء ... وهكذا يحدد العلم أهداف وأسلوب حركة الحياة والمجتمع ، ويتعين كما قلنا أن يكون العلم أو التفكير العلمى حرًّا من كل قيد ضمانًا لصدق الرؤية وموضوعيتها بعيدًا عن التزييف والنفاق .وتكون هذه الرؤية علمية حقا حين توحد بين العلم وبين الثقافة بمعناها الاجتماعى .

لقد أصبح الفناء والبقاء بمعناهما المادى والحضارى فى عصرنا الآن رهنا بالتوجه الاجتماعى للتفكير العلمى . وأضحت الحياة الاجتماعية اختيارًا واعيًا متكاملاً فى ظل ثقافة تغرس التفكير العلمى . إذ يختار المرء والمجتمع باستقلال فكر وعقلانية أهدافه الفردية والاجتماعية فى ضوء فهم علمى لمتطلباته وتطلعاته ، وتحليل عقلانى لواقعه . وهنا نبلغ غاية جديدة يتلاحم فيها العلم مع السلوك العملى الجمعى والفردى ، ويضحى العلم ركيزة للأخلاق وتربية للوجدان ، ونبع ثقافة لقدرة الإنسان على تغيير الواقع ، واقعه النفسى والمجتمعى والطبيعى ، وتتبدى سيادة الإنسان على الطبيعة كقيمة أخلاقية سامية لخدمة البشرية جمعاء . وبدون ذلك لن يجد المرء لنفسه ملاذًا غير التحليق فى تهويمات خيال مريض ، وانزواء وانسحاب إلى داخل النفس فى استسلام لقدر غشوم ، ولا مبالاة مدمرة لمسيرة المجتمع وكيانه .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٩٨/٢٧٥٨	
الترقيم الدولى	977-02-5550-5	ISBN

١/٩٧/٥٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

يقدم هذا الكتاب رؤية نقدية لثقافتنا الاجتماعية ومدى التضاد بينها وبين روح العصر التى هى العلم منهجًا فى التفكير، وإسهامًا فى الإبداع والإنجاز، ومناخا للحياة الاجتماعية التى تسهم فى خلق الإنسان المبدع. ويبين أن المعوقات الاجتماعية هى أخطر المعوقات التى تحبط القدرة الإبداعية. وثقافة العلم تعنى بناء مجتمع جديد لإنسان جديد نهم للمعرفة، مستقل الفكر والإرادة اجتماعى الوجدان، إنسانى النزعة، منتم إلى مجتمعه على أساس من الوعى العقلانى النقدى بتاريخه وحاضره ومستقبله.

ويعرض أخيرًا كيف يمكن لمجتمع ناهض أن يوفر هذه الشروط جميعها عن طريق التنشئة الاجتماعية والتعليم والإعلام والنظام الاجتماعى السائد.

٤٠٦٨٣١/٠١

